Mandūr, Muḥammad

Ibrāhīm al-Māzinī

ابراهيم المازني

تأليف

الدكتور محمد مندور

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة نهضة مصر ومطبعتها

الفجالة . مصر

مطبعة نهضة مصر بالفجالة

القاهرة

« محاضرات ألقيت سنة ١٩٥٤ على طلبة قسم الدراسات الأدبية
بمعهد الدراسات العربية العالية »

فلسفة المازنى وحياته

لقد كنت أعجب فى صدر حياتى لماذا اختار ابراهيم عبد القادر المازنى لكتبه تلك العناوين العجيبة مثل « حصاد الهشيم » و « قبض الريح » و « صندوق الدنيا » ، وكنت أتساءل عن السر الذى يدعو مثل هذا الكاتب الموهوب إلى الحط أو محاولة الحط من قيمة كتبه بوصفه إياها بأنها حصاد هشيم أو قبض ريح أو ملهاة أطفال . وهى كتب فتحت لنا آفاقا ونحن فى مقتبل الحياة وبصرتنا بأسرار ، وقادتنا إلى التفكير ، أو أثارت فينا الأحاسيس . وزادنا حيرة وتساؤلا ذلك الاطمئنان العجيب إلى الصحراء التى كان المازنى يقطن على حدودها بحى الإمام ، حيث تتلاقى القبور والمساكن عندما كتب الكتب السابقة . وقد صدر حصاد الهشيم بمقال عن هـــذه الصحراء اتخذ له عنوانا « على تخوم العالمين » ، واستهله بقوله : « بيتى على حدود الأبد — لو أنه كان للأبد حدود ! — وليس هو بيتى وإن كنت ساكنه . وما أعرف لى شبر أرض فى كل هذه القرى — ولقد كانت لى قصور — ولكن فى الآخرة !! بعت بعضها والبعض مرهون بحينه من الضياع ، ووقفت معلقا بين الحياتين ، كما سكنت على تخوم العالمين ! » .

ثم وصف تردده بين الحياة والصحراء فقال « وفى كل يوم أهبط

إلى ساحل الحياة ، وأتريث على حفافيها برهة،أشهدعبابها المتدفق ينهزم على الرمال ويتكسر على الحصى والصخور ، ويقذف بأشلاء غرقاه ، ثم يرتد ليؤوب بسواهم مطويين فى أكفان أثباجه ،محمولين على نعوش من مربد أمواجه . وبعد أن أقضى حق العين من التأمل والشهود ، كأنى موكل بعد الموتى وحساب البيود ، أكر راجعا إلى صحراواتى ! » ويختتم هذا المقال الرائع بقوله : « ويا عجبا: أهبط إلى ساحل العيش كل يوم وأعود وبى حاجة أن أميط عن نفسى ما علق من الأوحال ، فأغشى الصحراء فأصفو من الأخلاط والأوشاب ، وأرجع ولم يعلق حتى بثوبى التراب... » نعم كنت أعجب من كل هذا ، وأتساءل عن سره،حتى شاء الزمن أن نمد من أفق ثقافتنا ، وأن نبلو الحياة ، وإذا بما غمض فى صدر الحياة يتضح عند نضوجها . وإذا بنا ندرك أن المازنى رحمه الله قد كانت له فلسفة ، وأن هذه الفلسفة لم تكن نظريات ، بل إحساساً وسلوكا فى الحياة .

لقد انتهى المازنى إلى السخرية من الحياة ومن فى الحياة وما فى الحياة ، ولم يعد يعبأ بشىء ، وامتدت تلك السخرية حتى شملت عصارة نفسه وجهد حياته ، فلم ير فيما يكتب غير حصاد هشيم وقبض ريح وملهاة أطفال ، وإن لم ينته إلى هذه الفلسفة المرة الحزينة إلا بعد جهاد مرير بينه وبين نفسه من جهة ، وبينه وبين واقع الحياة من جهة أخرى. وما نظن أن انتصاره قد كان كاملا ، وذلك لأنك لن تعدم أن تجد من

حين إلى حين وميضا خلل الرماد . وإذا كان الكاتب الموهوب قد قال يوماً فى حصاد الهشيم تحت عنوان « صفحة سوداء من مذكراتى » : « وإنى لأقضى أيامى على نحو ما ، أروح وأجىء ، وأكتب وأتكلم ، وأضحك وآكل وأشرب ، ولكنى لا أرجو ولا أغضب ، ولا أحزن ولا أطرب ، ولا أرهب ولا أرغب ، لأنى لست حياً الآن » . نعم إذا كان الكاتب الموهوب قد قال هذه العبارات المحزنة يوماً من الأيام فإنها ولا ريب لم تكن إلا لمحات قاتمة لا بد أن ضوء الحياة قد بدد من ظلامها .

ولم يكن المازنى بغافل عن سبل النجاح فى هذه الحياة ، التى لا تعرف الرفق ولا تسكن إلى الملاينة . ولقد كتب هو نفسه فى « حصاد الهشيم » أيضاً عن النجاح فقال : « إن الحياء شىء حسن له فضله ومزيته ، ولكنه على ذلك ، ثوب يحسن أن يخلعه المرء إذا شاء أن يفوز بحقه ، ويظفر بما هو أهل له . فقد تكون أقوى الناس استعداداً ، وأكثرهم مواهب وملكات ، وأقدرهم على الاضطلاع بالأعباء والقيام بخطيرات الأمور وجلائل المساعى ، ويحرمك الحياء أن تجنى ثمرة تعبك وزهرة غرسك . وليس للخجل معنى فى الحياة أو نتيجة إلا أن الناس يملأون بطونهم وأنت جائع ، ويدخلون وأنت واقف بالباب ، ويتقدمونك وأنت متردد . واعلم أنك إذا أنزلت نفسك دون المنزلة التى تستحقها لم يرفعك الناس إليها ، بل أغلب الظن

أنهم يدفعونك عما هو دونها أيضاً ويزحزحونك إلى ما وراءها ، لم يكن المازنى إذن بغافل عن سبل النجاح فى مثل هذه الحياة ، ولكنه بالرغم من ذلك لم يكن يحفل بشىء وكان يسخر من كل شىء ، وأكبر الظن أنه لم يعاد هذه الحياة إلا بعد أن انتهى به طول النظر إلى الإيمان بأن النجاح والفشل سيان ، وبذلك يدخل كاتبنا الموهوب فى عداد كبار المتشائمين .

ولقد أفصح المازنى رحمه الله فى قصته المسماة «ابراهيم الكاتب» ، أو على الأصح فى مقدمة هذه القصة ، عن الكيفية التى انتهى بها إلى هذه الفلسفة الساخرة المتشائمة ، وذلك عندما حاول أن يدلل فى دعابة لطيفة على أنه لم يتخذ من نفسه بطلا لقصته ، فقال : «ولست أحتاج أن أقول أنى لست بإبراهيم الذى تصفه الرواية وأن هذا المخلوق ما كان قط ولا فتح عينيه على الحياة إلا فى روايتى... ثم إنى لست أرضى أن أكونه فما تعجبنى سيرته ولا مزاجه ولا التفاتات ذهنه ، وقد ندمت على خلقه بعد أن سويته ، فلو كان دمية لحطمتها وطحنتها ، ولو كان صديقاً لجفوته ونبوت به ، ذلك أنه يتناول الحياة باحتفال ، وأنا أتلقاها بغير احتفال ، وهو يعبس الدنيا وأنا أفتر لها عن أعذب ابتساماتى ، وأحس السرور بها يقطر من أطراف أصابعى كالعرق ، وهو مغرم بالتفلسف وأنا أعد الواحد من هذا الطراز مرزوءاً يستحق المرثية ، وهو وعر متكبر وأنا سمح متواضع ، وهو عنيد

وأنا ريض سلس ، وهو نفور وأنا عطوف . وفى نفسه مرارة وأنا مغتبط بالحياة راض عنها قانع بها ، وهو كأنما يريد أن يخلق الدنيا والناس على هواه ، ولذلك تراه قليـــل التسامح ، ضيق الصدر ، وأنا لا أرى فى الإمكان أبدع مما كان . ولست مثله أومن بالتثليث فى الحب أو الكره ولم أمرض قط بالبينيمونيا الخ . . . فليس بيننا كما ترى من تشابه سوى أن كلينا قصير قميء ، وأنا أزيد عليه أنى أصبت بالعرج ، فليته كان هو المصاب وأنا الناجى المعافى » . نعم أفصح المـازنى فى هذه الفقرات عن الكيفية التى انتهى بها إلى فلسفته الساخرة المتشائمة . وذلك لأن إبراهيم الكاتب بطل القصة هو ابراهيم المـازنى كاتب القصة ، ولا عبرة بما يدعيه من أن الشخصين مختلفان، فتلك إحدى حيله الكتابية العديدة . والذى لا شك فيه ، أن المازنى كان يجمع بين جوانحه صفات الشخصيتين ، أو على الأقل أنه قد تنقل وربما ظل يتنقل بين الشخصيتين . فمن احتفال بالحياة إلى عدم احتفال بها ، ومن سخرية إلى سرور ، ومن تكبر إلى تواضع ، ومن عناد إلى سلاسة ، ومن مرارة إلى غبطة ، ومن تشاؤم إلى رضى . ولا أدل على ذلك من أن يصف هذا الكاتب الموهوب سروره من الحياة بقوله: إن هذا السرور « يقطر من أطراف أصابعه كالعرق » ، وليس هذا من السرور فى شيء ، وإنما هو جهد الحياة وعرقها القانى . ولسنا ندرى

عندئذ كيف تكون هذه من صفات ابراهيم المازنى الطروب الذى لا يريد أن يكون ابراهيم الكاتب العابس .

لقد جمع المازنى إذن بين التعلق بالحياة والإعراض عنها ، وإن تكن فلسفته قد انتهت إلى السخرية من كل شىء والتنكر لكل شىء ، وكأنه بتلك السخرية وهذا التنكر ، كان ينتقم من الحياة التى لم تصبه بغير الضنى ، ولم تترك له راحة ولا استجماماً ، وكأنه مشدود بعجلتها التى لا ترحم ، وكأن مواهب النفس لا تستحق الرحمة فى هذه الحياة ، وكأنما قد كتب على هذه المواهب أن تضنى بالاحتراق البطىء أو السريع لكى تضىء السبل لأناس لا يدركون من حقائق النفس البشرية غير ظاهرها الضحل ، ولا يحسون بما فى أعماقها من مآسى .

والذى لا شك فيه أن قراءات المازنى قد ساهمت فى تكوين فلسفته كما ساهمت فى تكوين حياته . وفلسفته كما قلنا فلسفة حياة . وهو من النفوس الخصبة التى لا ترى فى الكتب التى تطالعها مخازن لتحصيل المعارف بل وسائل للتفكير الشخصى ، وتسديد ملكات النفس وتوجيهها فى الحياة ، حتى ليتمثل ما يقرأ ويهضمه إلى حد يختلط فيه المقروء بنتاج نفسه ، ولا يعود يميز بين ما أخذه عن الغير وما نبع من ذاته ، وربما كان هـــذا من الأسباب التى دعت بعض النقاد إلى الإسراف فى اتهامه بسرقة منتجات الغربيين أو الشرقيين والسطو عليها وانتحالها لنفسه .

ولقد كشف الأستاذ العقاد فى رثائه للمازنى المنشور بمجلة مجمع اللغة العربية جزء ٧ سنة ١٩٥٣ عن مدى تأثر المازنى بقراءاته وتوجيهها له فى الحياة فقال : « أما الجانب الذى أوحت به المطالعة فأحسبه راجعاً على الأرجح إلى كتابين من القصص الروسى : أحدهما قصة « سانين » لمؤلفها أرتزيباشف ، والآخر قصة « الآباء والأبناء » لتورجنيف . وكلتاهما تخلق الاستخفاف ، على الأقل حين قراءتها ، لمن لا عهد له بالاستخفاف . ولست أنسى هزة وجدانه بأفاعيل سانين بطل القصة الأولى ، مع إنكاره منها لتلك الحيوانية اللجوج التى مثله بها مؤلف القصة . وقد بلغ من رضاه عنها أنه ترجمها باسم « ابن الطبيعة » وأنه كان يردد بعض لوازم سانين فى كلامه بعد قراءتها بسنوات » . بل إن المازنى ليعترف هو نفسه فى بعض ما كتب بأن قصة سانين قد أعانته على الخروج من الأزمة النفسية العنيفة التى انتابته بعد وفاة زوجته الأولى .

ولعل المازنى قد كان من بين القلائل الذين تأثروا ، وهم من المسلمين ، تأثراً كبيراً بالكتاب المقدس ، وبخاصة بالعهد القديم منه ، وألفاظ « حصاد الهشيم » و « قبض الريح » مأخوذة من هذا الكتاب . إذ وردت فى سفر الجامعة ، وهو سفر مليء بالتشاؤم والسخط على الحياة والتبرم بها ، واعتبار كل ما فيها باطلا ، وقبض الريح . وإنك لتحس بتأثير هذا السفر فى الكثير مما كتبه المازنى عن نفسه أو عن

الحياة أو عن الناس مما يقطع بأنه قد تأثر به أعمق التأثر . والراجح أن الذى وجهه نحو الكتاب المقدس ، هو ما طالعه فى كتاب لفيكتور هيجو يتحدث عن فيه شكسبير ويستعرض كبار العباقرة فى الشعر والأدب فيذكر هومير وفرجيل ، ثم أيوب الذى يعزى إليه السفر المسمى باسمه « من العهد القديم » ، فتطلعت نفسه المولعة بالقراءة واستكشاف المجهول إلى قراءة هذا الكتاب كله ، وإذا به يستكشف كنوزه ، ويتمثل روائعه ، وإذا بهذه الكنوز والروائع لا تتضح فى فلسفته فحسب بل ويتخذ منها باقات يزين بها الكثير من كتاباته ، وبخاصة قصته « ابراهيم الكاتب » التى وضع فى رأس كل فصل من فصولها آية من آيات العهد القديم . وإنك لتقرأ فى رأس هذه الفصول « كل الأنهار تجرى إلى البحر والبحر ليس بملآن » أو « وكان مساء وكان صباح ، يوما واحداً » أو « إلى أن يفيح النهار وتنهزم الظلال أذهب إلى جبل المر وإلى تل اللبان » أو « إرجعى ! إرجعى ! ياشولميت ! إرجعى ننظر إليك ! » أو « أيتها الجالسة فى الجنات ! الأصحاب يسمعون صوتك فأسمعينى » . . . الخ . . . وأمثال تلك الآيات الساذجة الحلوة التى يغشيها حزن خفيف ، أو أسف لاذع على هروب الحياة وسرعة زوالها ، وكثرة مآسيها . . وكل هذه معان تجرى فى فلسفة المازنى كما تجرى فى آيات العهد القديم ، ذلك العهد الذى يضم أسفارا كسفر الجامعة وسفر أيوب كما يضم مزامير داود ونشيد الأنشاد .

لقد كان المازنى إذن من أولئك الكتاب المسلمين القلائل الذين

لم يقرأوا الكتاب المقدس فحسب ، بل صاحبوه حتى تمثلوه ، وتكونت لهم بمساعدته فلسفة، بل وسلوك في الحياة لما وجدوا له من تجاوب مع نفوسهم. وإنه لمن خطل الرأى أن نظن أن فلسفة المازنى فى الإعراض عن الحياة والسخرية منها ، قد هزمت فى نفسه غريزة الحياة وحب الحياة ، ومن البين أننا لا نحرص على الانتقام مما لا نحفل به . وكل ما يمكن أن يقال عن الطريقة التى كان المازنى يود أن لو أخضع بها الحياة قد أفصح هو نفسه عنه فى قصته عن ابراهيم الكاتب . حيث قال « ولكنك عبد الحياة ، عبدها الباكى الشاكى بغنائه الذى لا يعجب الأحرار الطلقاء . وأحسب أنك معذور إذا بكيت إسارك ، وحاولت أن تتلهى فى سجنك . لا بأس ! أرسل صوتك ليؤديه الصدى مقطعاً ! نعم غن وتسل ، كما يصيح الصبى فى الظلام ليطرد عن نفسه المخاوف ! واحلم — على الرغم من الرق والأسر — بالخلود ، وغالط نفسك ، وقل إن الجمال وحى وأن الحب . . . لا أدرى ماذا أيضا ! ولكن ألا تسمح لى أن أسألك ما وحى الأزاهر الذى يذكى أنفاسها ؟ وكيف تغدو الأشجار رفافة الغصن فيحاء الثمار ؟ أو أين وحى الينبوع فاضت به الأصلاد ؟ لا بأس ! غن يا عبد الأيام وألعوبة الليالى . » نعم ، فى هذه الفقرات يفصح المازنى عن الطريقة التى كان يود أن لو سيطر بها على الحياة . وهذه الطريقة هى الاكتفاء الذاتى على نحو ما يغرد الطير ويرف الشجر وتفوح الثمار وتفيض الينابيع عن الأصلاد غير

محتاجة إلى وحى خارجى أو إلى عون تستمده من غيرها . ولكم كانت تحلو الحياة عندئذ لرجل كالمازنى الذى ضاق ذرعا بالحياة والأحياء حتى أصابه منهم اليأس وتفجر هذا اليأس سخرية وتنكرا للحياة ، ومن فى الحياة وما فى الحياة .

وعلى الرغم من هذا التعلق بالحياة والنزوع إلى الاكتفاء بالذات، لم يفلت المازنى من أن يحس بهبوط هذه الحياة هبوطا ذاتيا أيضاً عندما تتقدم بنا السنون وتجفف من عصير قلوبنا ، فقال فى نفس القصة « متى جاء الخريف وبدأ المرء يشعر بأنه قد رأى خير ما كتب له من عمره وأن ما تبق من رحلته فى هذه الدنيا أشبه شيء بأن يكون وجوداً منه بأن يكون حياة — استمراراً ومجرد اندفاع فى الطريق الذى كانت تجرى فيه الحياة الأولى كما يجرى النازل من الترام خطوات إلى جانبه .. عرف المرء أن أذنه التى كانت تشملها همسة الحب الخافتة لن تسمع بعد ذلك تلك اللغة العذبة ، وصار القلب الذى كان يطفر إذا هتف بالنفس هاتف من أمل أو أطماح ، يخفق بلا احتفال ولا يخرج فى دقة عن الانتظام . وبدأت الآمال والرغائب التى كنا نعتز بها ونحرص عليها تفقد حلاوتها وقوتها ونضارتها ... وتتعرى زهراتها من أوراقها . وتصفر وتتساقط على اليد ، ويطيرها النسيم هنا وهاهنا » وفى هذه الفقرات يبلغ المازنى من التشاؤم حدا لا يمكن تجاوزه لأنه تشاؤم مستمد من صميم الحياة ذاتها . فلم تمله ظروف خارجية ، ولا أوضاع اجتماعية ولا دخل للغير

فيه ، وإنما هي الحياة ذاتها تخبو بين أيدينا ، ونحن عاجزون عن أن نعود فنشعل ثقابها .

كل هذه العناصر تجتمع فتكون فلسفة المازني الذي اتخذ السخرية سبيلا للتعبير عنها . وهي عناصر بعضها مستمد من طبيعة حياتنا المصرية ، وبعضها مستمد من طبيعة الحياة في ذاتها ، والبعض الآخر استقاه كاتبنا الموهوب ، من مطالعاته ، وبخاصة في الكتاب المقدس . ومن الغريب أن يحسب بعض الناس أن سخرية المازني كانت دعابة ومرحا ، أو كانت مجرد صنعة وأسلوب في الكتابة ، وهم بذلك يخطئون معنى هذه السخرية الدفين ، كما يعجزون عن إدراك روح المازني الحقيقية ، وما كان في تلك الروح من حزن ومرارة .

لقد كان المازني يبدو وديعاً متواضعاً في حياته ، ولكنها كانت وداعة تنم عن احتقار شامل للحياة ومن فيها وما فيها . وكان تواضعاً ينطق بأن صاحبه يؤمن بتفاهة الحياة ومن فيها وما فيها ، حتى ليؤمن بأنه مهما اتضع أو تواضع فلن يهبط إلى أقل من مستواها العام ، بل لعله يؤمن بأن اللآلىء لا تذوب في الأوحال ، وليس بعد هذا كبرياء ، وليست بعد هذا قوة بل شراسة . وهو القائل في صدر حياته وقبل أن تكبح فلسفته عنف شاعريته :

سأقضى حياتى ثائر النفس هائجـــاً
ومن أين لى عن ذاك معدى ومذهب
على قدر إحساس الرجال شقاؤهم
وللسعد جو بالبــلادة مشرب

لقد كان المازنى بارعا فى استخدام سلاح السخرية ، وهو سلاح لا يفضل الصرخات العاطفية فحسب ، بل ويفضل الأسلوب التقريرى العقلى أيضاً . وذلك لأن الاعتزاز بالنفس وملكاتها وادعاء القدرة على الهيمنة على الفكر لا تظهر فى السخرية كما تظهر فى التقرير ، كما أن السخرية لا تخلو من روح الدعابة ولا يطغى عليها الجفاف على نحو ما يطغى على التقرير أحياناً كثيرة ، وفى كل هذا ما يشحذ من سلاح السخرية ويكسبه مضاء

وإذا كان هناك خطر من استخدام السخرية فهو إفلات معانيها من بعض القراء . ولكن من البين أن الكاتب لا بد أن يفترض فى قارئه نفاذ البصيرة . وما دام أسلوبه خالياً من الالتواء أو التلميحات البعيدة ، فعلى القارىء أن يفهم عنه ما يريد ، وليس عليه أن يقتصر على كتابة ما يستطيع أن يفهمه كل قارىء ، وإلا ذهبت أسرار الكتابة واستعبدت مواهبها .

هذه صورة روحية للمازنى ، وهى تنم عن فلسفة ماضية فى الحياة، وليس من شك فى أن فيها ما يغرى بالبحث عن كيفية تكون هذه الفلسفةوتطورها ومظاهر إنتاجها الأدبى شعراً ونثرا ، وذلك ماسوف نحاوله فى المحاضرات القادمة باستعراض حياته وبيئته وثقافته ، وما خلفه من نتاج أدبى أصيل يفرد له مكانا خاصا فى الأدب العربى المعاصر ، بل فى الأدب الإنسانى العام .

حياته وأثرها فى أدبه

ولد المازنى فى ١٩ أغسطس سنة ١٨٩٠ وتوفى فى ١٠ أغسطس سنة ١٩٤٩ ودون فى مؤلفاته الشعرية والنثرية كل ما أصابه فى حياته بين هذين التاريخين، بحيث تعتبر مؤلفاته أصدق مرجع لتاريخ حياته، وإن يكن خيال الفنان ومنهجه فى الحياة، وبعض ضرورات المجتمع قد حرفت أحياناً من وقائع تلك الحياة، أو حاولت تنكيرها، ولكن من السهل أن نميز بين عمل خياله وواقع حياته، لنخرج من مؤلفاته بتاريخ حياة رائعة، قد تكون قليلة الأحداث والمفاجآت، ولكنها حياة فكر وقلب متصلة الحلقات، دائمة التطور، وثيقة الإتصال بإنتاجه الأدبى، حتى ليعتبر المازنى نسيجا وحده فى انعكاس حياته فى أدبه، فهو أدب شخصى لا موضوعى، ومع ذلك يعمر بالحقائق الإنسانية الصادقة، التى تفلت من ملابسات الزمان والمكان، وتصدق صدقا مطلقاً يضمن لها الخلود.

ولقد يتساءل المرء كيف استطاع المازنى أن يتخذ من حياته الخاصة المعين الأول لأدبه دون أن يمله القراء، أو ينصرفوا عنه، فيفقد أدبه قيمته، والجواب على ذلك نستطيع أن نجده فى حقيقة عميقة اهتدى إليها المازنى بغريزته الأدبية السليمة التى تشبه الإلهام، وهذه

الحقيقة هى الملاءمة بين صورة أدبه ومضمونه . فى اليوم الذى تغيرت فيه نظرته إلى الحياة وطريقة إحساسه بها وحكمه عليها ، تغيرت صورة أدبه من الشعر إلى النثر . وإذا كانت نظرة شبابه إلى الحياة لم تمح من نفسه محوا تاماً لشدة تأصلها فى صميم الحياة ذاتها بعد أن حقق أكبر نصر يستطيع المرء أن ينتصره على نفسه ، فإن هذه النظرة القديمة لم تعد تتسلل إلى أدبه إلا لماما وفى فترات عابرة لا تلبث أن تختفى نتيجة لانتصاره المتجدد على نفسه وعلى الحياة .

لقد كان هم المازنى الأول فى صدر حياته قول الشعر ، ثم حدث ذلك التطور الخطير الذى يمثله استواء فلسفته فى الحياة على سوقها ، وتغييرها التام لمنحى حياته وتفكيره وأدبه ، إلى حد جعل المازنى نفسه يرثى المازنى القديم بعد أن ظهر المازنى الجديد . وسجل أديبنا هذه الظاهرة فى مقدمة إبراهيم الثانى حيث قال : « إبراهيم الثانى هو إبراهيم الكاتب أو كانه على أصلح القولين ثم تغير جداً فلو أمكن أن يلتقى الابراهيمان لاحتاجا إلى من يقوم بينهما بواجب التعريف .وقديما قلت فى هذا المعنى أيام كنت أقول الشعر :

إنى أرانى قد حلت وانتسخت ... مع الصبا سورة من السور
وصرت غيرى فليس يعرفنى ... إذا رآنى صباى ذو الطرر
ولو بدا لى لبت أنكره ... كأننى لم أكنه فى عمرى
كأننا اثنـــان ليس يجمعنا ... فى العيش إلا تشبث الذكر
مات الفتى المـازنى ثم أتى ... من مازن غيره على الأثر

وإذن فقد كان هناك مازنى قديم نجده فى شعره بنوع خاص، ثم مازنى حديث نجده فى مجموعات مقالاته، وهو المازنى الثائر الساخر الذى تحدثنا عن فلسفته فيما سبق، وإن لم يكن من الصحيح أن المازنى القديم قد مات عن آخره ولم يخلف شيئاً فى المازنى الحديث. فكثيرا ما يحتل المازنى القديم المازنى الحديث، ويأخذ الاثنان فى العراك والتنابذ، كما يحدث أن يجلس المازنى الحديث وأمامه شبح المازنى القديم أو شخصه، ثم يتحاور الإثنان، وإن كان الجديد هو الذى يقود الحوار ويسلخ القديم بألسنة حداد. وأكبر الظن أن المعارضة التى نقرأها بين ابراهيم الكاتب وابراهيم المازنى فى مقدمة تلك القصة إنما هى معارضة بين المازنى الجديد والمازنى القديم، أو شبحه الذى لم يمت عن آخره كما قلنا.

لقد كان المازنى فى صدر حياته شاباً ثائراً، صاخبا متشائما عنيفا، ناقما على الحياة والأحياء. فآثر الشعر للتعبير عن أحاسيس نفسه، وكون هو وعبد الرحمن شكرى وعباس العقاد مدرسة سموها «مدرسة التجديد»، وقادوا معركة مزدوجة، أحد سلاحيها قرض الشعر، والسلاح الآخر حملة نقدية عنيفة على الشعراء والأدباء الذين وسموهم بالتقليد والسير فى الدروب المطروقة البالية، ولكن من الملاحظ أن هذه المدرسة الجديدة لم تغير شيئاً من الفنون الكلية للشعر العربى التقليدى، بينما غير شوقى ومطران مجرى ذلك الشعر.

وكان مطران هو الرائد الأول لهذا التغيير الخطير ، إذ نقل الشعر العربى من المجال الشخصى الغنائى إلى المجال الموضوعى القائم على شعر الملاحم والقصص والدراما . ثم جاء شوقى فاستحدث الشعر التمثيلى فى مسرحياته المعروفة ، بينما ظل شعر المدرسة الجديدة فى جملته شعراً غنائياً شخصياً ، وإن زعم بعضهم كالعقاد أن بعض قصائده كقصيدة « ترجمة شيطان » تدخل فى باب الملاحم ، وذلك لأن العقاد نفسه يعترف فى رثائه للمازنى أنه نظم هذه القصيدة لينفض عن نفسه المحن والآلام الشخصية التى نفضها المازنى فى ديوانه ، ونفضها شكرى فى الجزئين الثالث والرابع من ديوانه .

وبالرجوع إلى كتاب « الشعر ـ غاياته ووسائطه » الذى يتحدث فيه المازنى عن آرائه فى الشعر ، وبالرجوع إلى مقدمات الدواوين وإلى مقالات النقد التى كتبها أعضاء هذه المدرسة الجديدة تتبين أن الهدف الأول والأسمى فى التجديد الذى كانت تدعو إليه تلك المدرسة ، هو الصدق فى الإحساس ، والصدق فى التعبير ، حتى ليعرف المازنى نفسه الشعر بقوله : « إنه خاطر لا يزال يجيش بالصدر حتى يجد مخرجا ويصيب متنفسا » ومعنى ذلك أن الشاعر لا يقول الشعر بعمل إرادى وفى موضوع يختاره من التاريخ أو من حياة الناس المعاصرين له ، وإنما يقوله عندما تجيش الخواطر فى صدره وتلتمس لها مخرجاً ، فتنطلق من نفسه شعراً غنائيا شخصياً ، وبذلك تنحصر وظيفة الشعر

فى التنفيس الشخصى عن قائله . والواقع أن المازنى وشكرى والعقاد قد سلخوا شبابهم فى جو قاتم مضطرب ، وكان طموحهم الأدبى تغمره ظلال العمالقة الذين سموهم بالشعراء المقلدين ، فهاجت ثائرتهم وأعملوا معاولهم ، وإن كانت شاعريتهم لم تستطع أن تقهر شاعرية أولئك المقلدين ، وإن لم يمنعهم ذلك من أن يحدثوا فى الشعر العربى حدثا بتوجيهه نحو الصدق فى التعبير عن المشاعر الخاصة ، والآلام والآمال التى سيطرت على حياتهم ، مؤمنين بأن الألفاظ لا يمكن أن تستنفد مشاعر النفس ، وأن الشعر لا بد معتمد على الإيحاء والتصوير ، أكثر من اعتماده على الفصاحة الخطابية وقوة الإبانة اللفظية . وقد ضرب المازنى لذلك مثلا بقول كثير عزة :

وأدنيتنى حتى إذا ما سبيتنى   بدل يحل العصم سهل الأباطح
تجافيت عنى حين لا لى حيلة   وخلفت ما خلفت بين الجوانح

وعلق على هذين البيتين بقوله : « هذان بيتان ليس فيهما معنى رائع ، ولا فكر دقيق ، ولكنهما يصفان حال قائلهما أبلغ وصف ، ويتغلغلان إلى النفس تغلغل الماء إلى كبد الملتاح . وإنما يرجع الفضل فى ذلك إلى قوة الخيال . وشرح ذلك أن الشاعر لم يتجاوز الإشارة فى بيته إلى التبيين ، والتلميح إلى التصريح ، فذكر الدل ولم يذكر كيف دلها وإن يكن مثل لك فعله وتأثيره ، وقال : « وخلفت ما خلفت بين الجوانح ، ولم يقل ماذا خلفت ، فترك لذلك مضطربا واسعاً للخيال

ليتصور لطف دلها وسحره وفتنته ، وصبابة الشاعر وشغفه وحرقته ، وسائر ما ينطوى تحت قوله «وخلفت ما خلفت » فجاءا بيتين كلما زدتهما نظراً وترديداً زاداك جمالا وحسنا . ولو أن الشاعر أراد الإحاطة بجميع ما خلفت لكلف نفسه أمراً شديداً ، إذا لانت له جوانبه كان استيعابه هذا قيداً للخيال ، وحملا ثقيلا يرزح تحته وينوء به ، لأن الشعر يلذ قارئه ، إذا كان للمعانى التى يثيرها فى ذهن القارىء فى كل ساعة تجديد . وفى كل لحظة توليد » .

وفى الشعر العربى ، وبخاصة القديم منه ، أمثلة كثيرة كان المازنى يستطيع أن يقف عندها ليؤيد نظرية الإيحاء والتصوير أو الرمز فى الشعر . ومن خير هذه الأمثلة التى توحى بموقف إنسانى نافذ التأثير قول ذى الرمة :

عشية مالى حيـــلة غير أننى
بلقط الحصى والخط فى الترب مولع
أخط وأمحو الخط ثم أعيـــده
بكفى — والغربان فى الدار وقع

والواقع أن قول الشعر عند المازنى وزملاء مدرسته يشبه أن يكون إحدى ضرورات الحياة ، أو هكذا خيل إليهم . ولذلك جاء شعر المازنى تعبيراً عن حياته التى تجمعت فيها آلام ونحن لا بد أن حساسيته الفنية وخياله الخصب قد بالغامن وقعها ، فجاء شعراً حزينا يكاد يكون

يائساً . ولا غرابة فى ذلك ، فالشباب هو عصر التشاؤم والخصومة مع الحياة ، بينما يقل هذا التشاؤم حدة ، ويزداد المرء تسامحا كلما طال العمر واتسعت التجارب ، وكأن معاشرة الحياة تنتهى إذا طالت بالصلح معها وقبولها على علاتها أو الاستخفاف بها والانتقام من مآسيها بالسخرية ، على نحو ما فعل المازنى ، ولذلك يقول النقاد إن الشعر هو إنتاج الشباب ، وهو لا يتطلب معرفة عميقة بالحياة ، ولا تجارب عديدة فيها ، كما يقولون أن القصة هى عمل النضوج .

لقد اتخذ المازنى إذن الشعر صورة للتعبير عن إحساسه إزاء الحياة فى صـــدر شبابه ، وكان إحساسا قاتما متشائما ، فهل نستطيع أن نجد فى حياته ونشأته وظروفه ما يفسر هذا الإحساس ويبرر تلك النظرة؟

والواقع أن المازنى لم يترك صغيرة ولا كبيرة من أحداث حياته وأسباب نعيمه أو شقائه إلا تحدث عنها فى مؤلفاته ، إما حديثاً مباشراً أو حديثاً متنكراً فى أثواب الخيال والقصص ، وبذلك مكننا من أن نتتبع فلسفة حياته وتطورها تتبعاً دقيقاً ، وأن نفسر كل ذلك لا على أساس ما نستطيع أن نصل إليه من وقائع حياته وظروفها ، بل على أساس وقع تلك الأحداث . والظـروف الواحدة قد تحدث آثاراً وتوجيهات مختلفة تبعاً لاختلاف طبائع من وقعت لهم تلك الأحداث أو أحاطت بهم تلك الظروف ، فأغنانا المازنى عن الحدس والاستنتاج بإفصاحه عن وقع كل شىء فى نفسه ، وبخاصة بعد أن انتصر على نفسه

ذلك الانتصار الرائع ، الذى أبدله من الكبت الذى كان خليقاً بأن يعصر حياته ويصيبها بالعقم — إفصاحاً واستخفافاً وسخرية مكنته من أن يتحدث عن جميع نقائصه أو ما ظنها نقائص ، كما تحدث عن مواهبه وأمجاده بأسلوبه المستخف الساخر ، الذى نستطيع أن نستشف من خلفه حقائق يقينه وآرائه الجادة .

تحدث المازنى فى مقال له فى صندوق الدنيا تحت عنوان «الحقائق البارزة فى حياتى» بأسلوبه الساخر عن نسبه وأجداده فى صورة حوار ، يقول إنه جرى بينه وبين دكتور كان يراسل صحيفة نمساوية أتاه على أثر نشر المازنى لمقال عنيف ، نقلته صحيفة فرنسية بنصه وفصه عن بعض حقوق الصحافة ، فأثار ضجة . وأتى هذا الدكتور إلى المازنى ليسأله عن تاريخ حياته ونشأته ، ويجمع عنه ما يستطيع من معلومات . ودار بينهما حوار طريف نستشف منه استخفاف المازنى وسخريته بالأصول والأنساب . وبعد أن أوضح لمحدثه الأجنبى أنه لا يقل شرفاً وأرستقراطية عن أن ينتمى إلى أعظم جد وأجل شيخ وهو آدم نفسه — لم يضن على فضول محدثه ، فانحدر إلى الحديث عن بعض أجداده «الأقربين» من بنى مازن !! فزعم أن منهم مالك بن الريب المازنى . الذى كان زعيما لقومه ، وبلغ من قوته وسطوته أنه كان هو ورفقاؤه ، أى أتباعه ، يقطعون الطريق على رعايا الخليفة ويسومون الناس ما شاءوا ، غير أن الخليفة لم يحتمل هذه المنافسة ،

ولم يطق صبراً على هذا المزاحم فطلبه . وكان مالك قد رأى أن البلاد لم يبق بها ما يستحق أن يؤخذ، فتركها للخليفة ، ومضى بثلته إلى فارس حيث لم يكف عن ركوب الناس بالأذى ، حتى أجرى عليه الوالى مبلغاً شهرياً ، فلم توافقه هذه الحياة الوديعة ، فمات بعد الكف بقليل. ثم يقص المازنى أنباء هلال بن الأسعر المازنى ، ومسعود بن خرشة المازنى . ولكنا نترك المازنى عند مباهاته الساخرة ، لنصل إلى جدته لأمه التى يقول فى «رحلة الحجاز» أنها كانت مكية ، زوجوها وهى بنت العشرين سنة رجلا فحلا من أهل المدينة فنشزت فطلقوها منه . ثم احتملوها إلى مصر بعد وفاة أبيها وخراب بيته وتجارته ، فتزوجت جده ، وأما أبوه فمازنى مثله !! » وقد انحدرت إليه هذه المازنية ثم إلى ابنه من بعده على نحو ما انحدرت إلينا الآدمية » . ولقد يكون هذا من الأدب الخفيف الرقيق ، ولكننا نتركه أيضاً لنقف عند « الحارة اللعينة » التى يتحدث عنها فى « خيوط العنكبوت » وفيها يقع مسكن أسرته عند صحراء الإمام ، وعلى تخوم العالمين : عالم الموتى وعالم الأحياء وكان بيتاً من البيوت التى يدعونها بيوت الغز الذين يتحدث عنهم وعن هذا البيت بقوله « ولا علـــم لى بهؤلاء الغز ، ولا رأيت منهم أحداً فى حياتى . وكنت فى حداثتى أخجل أن يقال أن بيتنا من بيوت الغز لتوهمى أن الغز لا شك أناس معيبو السيرة . فلما كبرت عرفت أن المراد المماليك أو من فى حكمهم ، ممن كانوا هم السادة فى وقت من

الأوقات ، ويظهر أن بيتنا كان لرجل دائم الوجل ، لا يزال يتوقع العدوان ويحذره ، ويحب أن يتق مفاجآته ، فقد كانت بوابته كبوابة المتولى ، كبيرة هائلة تغطيها المسامير الضخمة . التى يعدل رأس الواحد منها رأس طفل . وكان له رتاج غليظ يدخل فى جدار عظيم السمك ، أما المدخل مما يلى البوابة فطريق ملتو ينعطف يمنة ويسرة . وفيه مخابىء ومكامن تتصل بها دهاليز خفية . والمرء لا يستطيع فى النهار أن يبصر كفه من شدة الظلمة . وكنا نضع مصباحا ، ولكن لم يكن يضىء شيئا . بل كان كل ماله من النفع هو أن يرينا شدة السواد ، ويزيده وقعاً فى النفوس » ثم يمضى المازنى على هذا النحو فى وصف منزل الأسرة الذى نشأ فيه ووصف الحارة اللعينة ، وهو وصف ينم فى وضوح ، عن مبلغ الضيق الذى استشعره المازنى فى صباه داخل المنزل العتيق المغلق كالحصن . ولم تكن بيئته الإجتماعية أقل ضيقاً وتزمتاً من هـذه البيئة المادية فقد نشأ فى بيت دين : خاله من رجال الدين . وكان أبوه محامياً شرعيا ، كما كان أخوه الأكبر محامياً شرعياً أيضا ؛ خلف أباه فى تولى الشئون الشرعية للقصر الملكى . ومات أبوه وهو فى إهاب طفولته ، وبدد أخوه الأكبر ثروة أبيه قبل أن يشب إبراهيم ويستطيع إنقاذ ما ورثه عن أبيه . ومنذ ذلك الحين عرف إبراهيم شظف الحياة والجد فيها ، حـــتى يستطيع أن يقوت نفسه ، وأن يقوت بعد ذلك ذويه ، وإن يكن قد لقى من أمه التى أنجبته بعد

أن ثكلت طفلين كما أنجبت أخا له هو أحمدالذى يصغره بخمسة أعوام — كل حنان ورعاية . وبلغ من حب إبراهيم لأمه ، أن زعم فى أكثر من موضع مما كتب ، أن هذا الحب قد استنفد طاقته العاطفية ، فلم يعد فى قلبه مكان عميق لحب امرأة أخرى . ومن خير ما يصور علاقة إبراهيم المازنى بأمه وتعاطفه معها ، وتشاركهما فى التعزى عن نكبات الحياة وشظفها قوله :

يا أم لا تجزعى مما يحيق بنا ... من الخطوب ولا تأسى لما فاتا
تمضى المقادير فينا الحكم عادلة ... ويقسم الله أرزاقاً وأقواتاً
وكل ضائقة تغدو إلى فرج ... وإن لليسر مثل العسر ميقاتا
ضل الذى يرتجى تأخير قسمته ... قدمات كالكبش إسماعيل قدماتا

وقد كان لهذا الشظف المادى أثره البالغ فى حياته ، فبعد أن أتم دراسته الإبتدائية بمدرسة القربية ثم دراسته الثانوية بمدرسة التوفيقية ثم بمدرسة الخديوية ، التحق بمدرسة الطب ليتخرج طبيباً كبعض أفراد أسرته ، ولكنه لم يكد يشهد صالة التشريح وما فيها من جثث حتى أغمى عليه وولى هاربا . فحاول أن يلتحق بمدرسة الحقوق ، ولكن حال دون تحقيق رغبته ما حدث فى ذلك العام من رفع رسوم هذه المدرسة من ١٥ جنيها إلى ثلاثين ، وهو مبلغ لم يكن يستطيع دفعه ، فانتهى به الأمر إلى مدرسة المعلمين التى لم تكن مجانية فحسب ، بل وكانت تعطى مكافأة دراسية لمن يلتحق بها من طلاب ، ولم يكن

فى تلك المدرسة عندئذ تخصص ، فلا أدبى ولا علمى ، بل دراسة موحدة . وقد شق المازنى بدراسة الرياضة ، كما شقى فيما بعد بتدريسها، حتى ليزعم بسخريته المعهودة أنه كان يلتمس العون من تلاميذه فى فهم وحل مسائل الحساب التى تضنيه ، وينفر منها . وإن يكن الجبر والهندسة قد كانا أخف حملا على نفسه . وكان يصارح تلاميذه بأنه منكوب بتدريس الرياضة . وأن الوزارة هى المسئولة عن هـــذه النكبة ، وبلغت بأحد تلاميذه السذاجة البريئة حد موافقته على أن الوزارة آثمة إذ تعين « جاهلا » لتدريس مادة لا يفهم فيها شيئاً !!

ولقد يقال إن شظف العيش لم يبلغ بالمازنى وبأسرته حد الحرمان وأن مثله مثل الملايين من الناس الذين يقنعون بالكفاف ويعيشون من يدهم إلى فمهم كما يقول المثل الانجليزى ، وهذا صحيح ، ولكن هذه أمور نسبية تقاس إلى طبيعة كل فرد وحالته العصبية ، كما تقاس إلى وضع الفرد الاجتماعى واتجاه تطوره من سعة إلى ضيق ومن رخاء إلى شظف . وذلك فضلا عن شكوى المازنى المرة من المهنتين الوحيدتين اللتين قدر له أن يزاولهما فى حياته وهما التدريس ، ثم الصحافة والكتابة، بما يلازم هذه المهنة الأخيرة من عدم الاستقرار والقلق على المستقبل إلى حد جعل المازنى يخاف مما يسر ، خوفه مما يسوءه فيقول :

ويروعنى يأسى ويفـزعنى — أملى وأفرق من لقاء غدى
ولرب جوهرة ظفرت بهـا — فنفضت منهـا كف مرتعد

ورجعت أنظر هل بها أثر   منها يظل يهيف فى جلدى

ومنذ تخرج المازنى من مدرسة المعلمين العليا سنة ١٩٠٩ فى دفعة محمد فريد أبو حديد ومحمود فهمى النقراشى ومحمود جلال ، اشتغل مدرسا للتاريخ بالعبيدية الثانوية ، ثم الخديوية . إلى أن نقله حشمت باشا وزير المعارف عندئذ من الخديوية إلى دار العلوم لتدريس الإنجليزية ، للطلبة المبتدئين ، الذين لا يعرفون من تلك اللغة شيئاً . فتبرم المازنى بهذا النقل وحسب أن نقده لشعر عبد الرحمن شكرى ثم لشعر حافظ ابراهيم صفى وزير المعارف وجليسه قد كان سبب هذا النقل الانتقامى الذى زاد فى تبرمه بمهنته ، وسخطه عليها ، وضيقه بقيود الوظيفة الحكومية مما انتهى به إلى الاستقالة فى سنة ١٩١٣ ليعمل فى التدريس بالمدارس الحرة كالمدرسة الإعدادية ، ومدرسة وادى النيل ، والمدرسة المصرية الثانوية التى أفلست . وكان إفلاسها فى سنة ١٩١٧ آخر عهده بالتدريس وبدء انقطاعه للصحافة ، التى كان قد أخذ يتصل بها ويكتب لها منذ سنة ١٩٠٧ وهو لا يزال طالباً مع طه حسين وحسين هيكل وعبد الرحمن شكرى وعباس العقاد ، الذين كانوا يكتبون عندئذ فى «الدستور» «والبيان» ليقرروا المبادىء التى يريدون أن يقوم عليها التجديد الأدبى والثقافى ويضربون له الأمثلة .

ومنذ ذلك التاريخ أخذ المازنى يزاول تلك المهنة الشاقة التى يسمونها الصحافة ، والتى تشبه ذلك البرميل المثقوب القاع ، الذى زعم

الإغريق أن الآلهة قضت على بعض المغضوب عليهم أن يملأوه، فأنفقوا حياتهم دون أن يصلوا إلى هذا الهدف . ومثلهم مثل سيزيف ذلك البطل البائس الذى أغضب يوما كبير آلهة الإغريق، فقضى عليه بأن يدحرج إلى قمة جبل شاهق حجراً ضخما، كلما دحرجه دورة عاد الحجر دورة إلى الخلف وهكذا، حتى فنى البطل دون هذا الجهد المضنى العقيم . وإن يكن جهد المازنى لم يأت لحسن الحظ عقيما، بل أتى بخير ما خلف فى رأينا، وهو سلسلة المقالات الرائعة التى جمعها المازنى فى « حصاد الهشيم » . « وقبض الريح » ، « وصندوق الدنيا » ، « وخيوط العنكبوت » وغـــيرها . وهى مقالات غزيرة بمادتها الإنسانية، ولطيفة نافذة بروحها الشعرية حينا ، ونغماتها الساخرة حينا آخر . وإن استخف بها المازنى وشكا من تبديد حياته فى جمعها ونسج مادتها ، فقال فى مقدمـة « صندوق الدنيا » «كنت أجلس إلى الصندوق أيام طفولتى وأنظر إلى ما فيه، فصرت أحمله على ظهرى وأجوب به الدنيا، أجمع مناظرها وصور العيش فيها عسى أن يستوقفنى نفر من أطفال الحياة الكبار ، فأحط الدكة وأضع الصندوق على قوائمه وأدعوهم أن ينظروا ويعجبوا ويتسلوا ساعة بملاليم قليلة، يجودون بها على هذا الأشعث الأغبر، الذى يشبر فيا فى الزمان وماله منقلب سوى آماله وهى لوافح، أونجم سوى ذكرى نورها خافت . ولا أزال أجمع له وأحشد، وما فتىء السؤال الأبدى عندى منذ حملت صندوق

على ظهرى : «ماذا أصور» ؟ هذه هى المسألة كما يقول هملت فى روايته الخالدة . والفرق بينى وبين هملت أنه هو معنى بالحياة والموت ، وبأن يكون أولا يكون ، وبأن يبق على نفسه أو يبخعها ؛ أما أنا فلا يعنينى شيء من هذا ، ولست أرانى أحفل لا الحياة ولا الموت ، ولا الوجود ولا العدم ، أو لعل الأصح والأشبه بالواقع أن أقول إنى لا أرى وقتى يتسع للتفكير فى هذا . ذلك أنى صرت كالذى زعموا أنه كانت له زوجة ترهقه بالتكاليف وتضنيه بالأعمال التى تعهدإليه فيها أو تأمره بأدائها ، قالوا فأشفق عليه صاحب ورثى له ، وأشار عليه أن يطلقها لينجو بنفسه من هذا العناء ، فطأطأ الرجـــل رأسه ثم رفعه وقال : « ولكن متى أطلقها ؟ لا أرى وقتى يتسع لهذا » .

« كذلك أنا زوج الحياة الذى لا يستريح من تكاليفها . أقوم من النوم لأكتب . وآكل وأنا أفكر فيما أكتب ، فألتهم لقمة وأخط سطراً أو بعض سطر ، وأنام فأحلم أنى اهتديت إلى موضوع وأفتح عينى فإذا بى قد نسيته ، فابتسم وأذكر ذاك الذى رأى فى منامه ، أن رجلا جاءه فأنقده تسعا وتسعين جنيها فأبى إلا أن تكون مائة ، فلما انتسخ الحلم ورأى كفه فارغة عاد فأطبق جفونه وبسط راحته وقال : « رضينا فهات ما معك » .

« وأشتاق أن أداعب أولادى ، فيصدنى أن الوقت ضيق لا يتسع للعب والعبث ، وأن على أن أكتب . وأرى الحياة تزخر تحت عينى

فأشتهى أن أضرب فى زحمتها وأسوم سرحها ، ولكن المطبعة كجهنم لا تشبع ، ولا تمل قولة « هات » . وأكون فى المجلس الحالى بحسان الوجوه رقاق القلوب وبكل من كان مهيار يتحسر على مثلها ويقول :

آه على الرقة فى خدودها　　لو أنها تسرى إلى فؤادها

فأشرد عنهن وأذهل عن سحر جفونهن ، وأروح أفكر فى كلام أكتبه صباح غد . وأشرب فلا أسهو ، وأضحك فلا أرانى ألهو ، ويضيق صدرى فأتمرد ، وأخرج إلى الطرقات أمتع العين بما فيها مما تعرضه الحياة ، فإذا بى أقول لنفسى : إن كيت وكيت مما تأخذه العين يصلح أن يكون موضوع مقال ، فأقنط وأكر راجعاً إلى مكتبى لأكتب . وهكذا كأنى موكل بفضاء الصحف أملأه كما كان ذلك الشاعر القديم المسكين موكلا بفضاء الله يذرعه » .

وفى نفس المقدمة يعترف المازنى بأنه قد صدق فيما كتب به إلى صديق على صورة له :

أخوك إبراهيم يا مصطفى　　كالبحر لا يهدأ أو يستريح
كالبحر حى الموج يقظانه　　لكنه من نفسه فى ضريح
من حوله الشطئان لا تنثنى　　تحبسه دون انسياح الفتوح
خلت من المعنى لحاظ له　　وكانت البرق المضىء المليح
حــواء يا أماه أنت التى　　أورثتنى هذا البلاء الصريح
كم آدم أخرجت يا أمنا　　من خلده بعد أبينا الطليح

وسواء أأنصتنا لفتى مازن الناثر المستخف الساخر ، أم المازنى الشاعر المتبرم الساخط ، الشاكى من الحياة ومن مجيئه إليها ، فإننا لن نخرج إلا بنتيجة واحدة هى ضيقه بهذه الحياة ، وتبرمه بذلك الجهد المضنى المتصل ، الذى يستعبد حياته فى غير رحمة ولا هوادة ، مقابل مليمات قد يجود بها — وقد لا يجود — أولئك الأطفال الكبار الذين يلهون بالنظر من صندوق الدنيا الذى حمله المازنى على ظهره سنين طويلة . لكى يرفه به عن الناس مقابل لقمة العيش ، التى يتناولها معجونة بعرق جبينه بل بدم حياته .

هذه بعض هموم الحياة التى نكب بها المجتمع المازنى فى حياته العامة ، فما بالنا بحياته الخاصة التى لم تقل نكداً ولاهموماً . وقد دلف إلى الحياة قصيراً ضئيل الجسم ، بل وخيل إليه أنه قمىء ، وإن لم يخل هذا الخيال من شطط . ثم حدث أن كان يتسلق ليأتى امرأته الأولى بدواء من صندوق معلق بالحائط ، فسقط وأصيب فى ساقه إصابة خلفت به عرجا ، وإن يكن خفيفاً ، إلا أنه لم ينسه طوال حياته . ثم عانى من اختلاف الطبائع وعدم الفهم المتبادل للحياة بينه وبين تلك الزوجة آلاما مريرة خلال ثلاث سنوات ، حتى انتهى به الأمر إلى أن يستنجد بقراءاته وتفكيره لحل ذلك الخلاف . ووفق إلى ما أراد وتحدث عن هذه التجربة الكبيرة فى مقدمة المسرحية الوحيدة التى كتبها وهى « بيت الطاعة » أو « غريزة المرأة » التى يقول إنه استخلصها

من تجربة حياته الخاصة . ويزعم الأستاذ محمد على حماد فى كتابه (المعول) أن المازنى قد سرقها من رواية (الشاردة) لجالزورثى مما اضطر المازنى إلى أن يترجم بنفسه هذه (الشاردة) لكى يحكم القراء بينه وبين ناقده. وإن كان المازنى نفسه يعترف فى مقدمة الجزء الثانى من ديوان شعره بأنه كثيراً ما يجد عند غيره من الأدباء والشعراء تعبيراً عما فى نفسه، فينقله شعراً أو نثراً إلى اللغة العربية منسوباً لذويه، كما يحدث أن تذوب بعض معانى الغير فى بوتقة نفسه وتتوه فى لا وعيه ثم تبرز على غير علم منه فيما يشعر أو ينثر .

وبالرغم من تغلب المازنى على الخلاف المستحكم بينه وبين زوجته الأولى ، واستقامة حياتهما هانئة وادعة ست سنوات أخرى ، فإن القدر لاحقه فاختطف تلك الزوجة . ثم تزوج المازنى مرة أخرى ورزق ثلاثة أبناء كما رزق بنتاً ، ولكنه فقدها كما فقد ابنته من الزوجة الأولى وقد حزن حزناً مبرحا على وفاة هاتين البنتين ، وتحدث عن البنت الأخيرة فى مقدمة كتابه المسمى «فى الطريق» حديثاً يرتفع إلى مستوى أروع ما كتب الشعراء والأدباء عن أبنائهم الذين ثكلوهم ، فقال :

« فى بعض الأحيان أكون جالسا إلى مكتبى قبل طلوع الشمس وأمامى الآلة الكاتبة ، أدق عليها ، وأرمى بورقة إثر ورقة ، وإلى جانبى فنجان القهوة أرشف منه وأذهل عنه . فأحس راحتيك الصغيرتين على كتفى ، فأدير وجهى إليك ، وأرفع وجهى لأصبح على بستان وجهك ، واستمد

من عينيك النجلاوين واقترار ثغرك النضيد، ما أفتقر إليه من الجلد والشجاعة. وأدفع يدى فأطوقك بذراعى وأضمك إلى صدرى وألثم خدك الصابح، وأمسح على شعرك الأثيث المرسل على ظهرك، وجانب محياك الوضىء، وأتملى بحسنك وأنشر فى كهف صدرى المظلم نور البشر والطلاقة، فتدفعين ذراعك الغضة وتتناولين ببنانك الدقيقة ورقة مما كتبت، وترفعينها أمام عينيك وتزوين ما بينهما، وتتخذين هيئة الجد الصارم، وتفيضين على نفسك السمحة العطوف وأنت مضطجعة على ذراعى سمتا وأبهة، يغريان بالابتسام، وأنا أنظر إليك وفى قلبي سكينة، وجوى من قربك معطر بمثل أنفاس الروضة الأنف فى البكرة الندية، وألمح شفتيك الرقيقتين تختلجان، وعينيك تلمعان فتطيب نفسى بسرورك الصامت، ثم أسمع ضحكتك الفضية، وأراك تغطين وجهك الحلو بالورقة فيستطيرنى الفرح ويستخفنى الجذل، ولكنى أتظاهر بالخوف على الورقة التى لا قيمة لها أن يمزقها أنفك الجميل، فترمين رأسك على ذراعى وينسدل شعرك الذهبى المتموج كالستار، وتصافح سمعى من ضحكاتك العذبة موجات لينة، ثم تعتمدين على ساق وتدفعين ذراعيك، فتطوقين بهما عنق، وتجذبين وجهى إليك، ولكنك تشفقين على رقة شفتيك من خشونة خدى، فتلثمين أذنى الطويلة... وتعضينها أيضاً، فأصرخ فتثبين إلى قدميك، خفيفة مرحة، وتخرجين بعد أن خلفت فى صدرى إنشراحا، وفى قلبي رضا،

وفى روحى خفة وفى نفسى شفوفا ، وفى عقلى قوة وفى أملى بسطة وإتساعا ، وفى خيالى نشاطا ، فاضطجع مرتاحا وأغمض عينى القريرة بحبك ثم أفتحها على :

صيد حرمناه على إغراقنا   فى النزع والحرمان فى الإغراق

أى والله ، لولا الإغراق ما كان الحرمان ، وهل الشعور به إلا من الإسراف فى الرغبة ، واللجاجة فى الطلب ؟

بل أفتح العين على جثة صغيرة حملتها بيدى هاتين إلى قبرها وأنزلتها فيه ووسدتها التراب ، بعد أن سويته لها بكفى ، ورفعت من بينه الحصى الدقاق . ثم انكفأت إلى بيتى جامد العين ،وعلى شفتى ابتسامة متكلفة ، وفى فمى يدور قول ابن الرومى :

لم يخلق الدمع لامرىء عبثا   الله أدرى بلوعة الحزن

وتدخل على زوجتى لتحيينى تحية الصباح ، فأتلقاها بالبشر والبشاشة وأهم بأن أحدثها بما كبر فى وهمى قبل لحظة ، ولكنى أزجر نفسى وأردها عن التعزى باللغط . ولو أنى شرعت أحدثها بشىء من ذلك لما فرغت ، فما أخلو بنفسى قط إلا رأيتنى أستطيب أن أتخيل فتاتى على كل صورة وكل هيئة وفى كل حالة . ويحلو لى أن أفشى بينى وبينها الحديث فى كل موضوع من جد وهزل ، ويسرنى أن أسمع نكتتها ، وأرانى أستملح فكاهاتها ، وأنتحلها فيما أكتب،وأضحك أحيانا بصوت

عال بل أقهقه غير محتشم ، فإذا تعجب لى داخل متطفل على فى هذه الخلوة المحببة إلى نفسى رفعت له وجهاً كالدرهم المسيح وهربت بالتبالة من الجواب الذى يطلبه بعينه أو لسانه ، وتركته يظن بعقلى ما يشاء. وماذا أقول له ؟ فى وسعى أن أكذب فما لباب الكذب مفتاح ، ولكن الكذب ينغص على المتعة التى استفدتها من الحوار ، الذى كان يدور بينى وبين حياة ».

هذه صفحة تنطق بمبلغ رهافة إحساس المازنى ، وهى رهافة تكاد تبلغ حد المرض والهذيان ، ورؤية الأشباح أو مخاطبتها . وهى ليست فريدة فى كتاباته . فهذه الحساسية المفرطة تطالعنا فى أكثر من موضع ولقد أصيب المازنى لعدة سنوات بالنورستانيا ، نتيجة لترديه فى إحدى الليالى — وهو عائد إلى بيته — فى أحد القبور ، وشدة الرعب الذى استولى على نفسه من ملامسة الجثث ، أو ما ظنه جثثا ، وما رآه أو ظن أنه رآه من أشباح ، حتى سيطرت عليه الأفكار السوداء ، وتجمعت فى الخوف من الموت فأخذ يتردد على جميع الأطباء لمرض موهوم ، وتحدث عن كل ذلك فى مواضع كثيرة مما كتب .

هذه الحالة العصبية المرهفة هى التى أوحت للمازنى بشعره أولا ، ثم بصفحات النثر العاطفى التى تتخلل أدبه الساخر المستخف ، كما تتخلل الجمرات التراب المتخلف عن النيران . وإذا كان قد كتب هذه الصفحة الرائعة عن ابنته « مندورة » التى يسميها « حياة » ، وهى صفحة تذكرنا

بقصائد فيكتور هيجو فى رثاء ابنته التى غرقت فى السين مع زوجها الشاب ، كما تذكرنا برثاء ابن الرومى لابنه — فقد كتب صفحات أخرى زاخرة بالعاطفة فى رثاء أمه ، وفى التحدث عن بعض ذكريات شبابه لحبه الأول وما إليه .

وليس من شك فى أن هذا الأحساس المرهف ، وتلك الظروف المضنية هى التى أوحت إلى المازنى بأن يصف عصره هذا الوصف القاتم الذى ساقه فى الجزء الثانى من ديوان النقد عند حديثه عن المنفلوطى حيث قال : « إنا نعيش فى عصر تفكير عميق ، وعهد قلق عظيم واضطراب كبير وشك مخيف . عصر تعتصر فيه العقول ، ويستنفد فى حيرته مجهود القلوب ، وقد استولت الظلمة على عوالمنا السياسية والخلقية والعقلية ، وصارت حياتنا محيطا زاخر العباب يضطرب بنا متنه فى عشى ليالينا المتجاوبة بصيحات الشك والظمأ إلى المعرفة والحنين إلى النور » .

هذه الحساسية المسرفة إلى حد يشبه المرض كانت خليقة إما بأن يأكل بعضها بعضاً فتفنى صاحبها ، أو تصيب ملكاته بالعقم ، وتنتهى به إلى الاستسلام إلى اليأس ولزوم الصمت كما حدث لعبد الرحمن شكرى ، وإما أن تسوقه إلى العناد والإسراف فى الكبرياء والاعتداد بالنفس عند ما يعتقد صاحبها أن المجد لم يسارع إليه ولم يطامن له من غربه كما حدث للأستاذ عباس العقاد . وإما أن ينتصر الإنسان على نفسه

وعلى الحياة بالسخرية والاستخفاف وعدم المبالاة فيستطيع ، أن ينفس عن كافة آلامه وآماله الخائبة أو التي يعتقد أنها خائبة ، وبذلك يبلغ من المجد ما بلغه سر فانتيس عندما يئس من كل مجد ، فأخذ يسخر منه فى قصـــة من أروع ما عرفت الانسانية من قصص ، وهى قصة « دون كيشوت » التى يسخر فيها سرفانتيس من البطولة والأبطال ، ومن المجد والمـاجدين ، وإذا به يصل إلى أعلى قمم المجد بفضل هذه القصة ذاتها .

وأية حساسية وأى يأس يمكن أن يتجاوز رثاء المرء لنفسه وهو حى بعد أن آمن بضلال أحلامه وآماله ، وأصبح يخشى أن يموت فلا يرثيه أحد ؟ وهذا هو ما يسجله المازنى فى رثائه لنفسه حيث قال:

قضى غير مأسوف عليه من الورى فتى غره فى العيش نظم القصائد
وقد كان مجنـوناً تضاحكه المنى وفى ريقها سم الضلال الشوارد
فعاش وما واساه فى العيش واحد ومات ولم يحفل به غير واحد
أراد خلود الذكر فى الأرض ضلة فأورده النسيان من الموارد
ولم يبكه إذ مات إلا أجيرة لهـا زفرة لولا اللهى لم تصاعد
فلا دمع روى يوم ولى ترابه وكيف يروى تربه غير واجـد
فلا تندبوه إنه ليس بالأسى حقيقا ولا أهل الهموم العوائد

وأى بون شاسع بين هذا الشعر اليائس الحزين وبين شعر أحد أجداده « المازنيين » وهو مالك بن الريب المازنى التميمى الذى ذكره

المازنى بين أجداده ، وقد أصابه مرض شديد وهو عائد من خراسان مع واليها سعيد بن عثمان بن عفان وأوشك على الموت فلم يسخر من نفسه ولا من أحلامه ولا تنكر لبطولته وفتكه ولا استنكر غرامه ومغامراته بل ذكر كل ذلك فى قصيدته الرائعة :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة
بجنب الغضى أزجى القلاص النواجيا

وإن لم يمنعه ذلك من أن يتحسر على الحياة ، ولا أن يغمط نفسه حقها فيطلب إلى رفاقه أن يترفقوا به ويحترموا مرضه ويوسعوا له قبره حيث يقول :

فيا صاحبي رحلى دنا الموت فانزلا
برابيــــة إنى مقيم لياليــــا
أقيما على اليوم أو بعض ليـــلة
ولا تعجـــلانى قد تبين مابيــــا
وقوما إذا ما استل روحى وهيئا
لى السدر والأكفان ثم ابكيا ليا
وخطا بأطراف الأسنة مضجعى
وردا على عينى فضــــل ردائيا
ولا تحسدانى — بارك الله فيكما —
من الأرض ذات العرض أن توسعا ليا

خـــذانى لجرانى ببردى إليكما
فقد كنت قبل اليوم صعبا قياديا

. . . .

ولا تنسيا عهدى — خليلى — إننى
تقطع أوصالى وتبـــلى عظاميا

. . . .

يقولون لا تبعـــد وهم يدفنوننى
وأين مكان البعـــد إلا مكانيا
غداة غد — يا لهف نفسى على غد
إذا أدلجوا عنى وخلفت ثاويا

ولـكن مالك كان فاتكا من فتاك العرب ، الذين يغالبون الحياة ولا يتطرق إلى نفوسهم يأس قاتم من الحياة والأحياء كذلك الذى تسرب إلى نفس حفيده ابراهيم عبد القادر ، وهو لا يزال فى مستهل الشباب .

وفى الحق أن بلوى ابراهيم المازنى لم تكن فى بيئته وفى عصره بقدر ما كانت فى أعصابه هو وحنايا نفسه . ولا أدل على ذلك من هذه الأبيات يخاطب فيها شكرى والعقاد بقوله :

خليـــلى مهلا بارك الله فيكما
فما فى سكون الليل مسلاة واجـــد

إذا ثار ما بين الحجابين والحشا
فكل سكون يستثير رواقدى
وإن سكنت نفسى فليس بضائرى
رياح تجر الذيل حولى وتعصف
فليس يضير الحوت فى البحر أنه
يهيج وأن الموج يطغى ويعنف

والظاهر أن مشكلة المجد الأدبى كانت من المشاكل التى أضنت المازنى كما أضنت صاحبيه شكرى والعقاد فى صدر شبابهم وكما لاتزال تضنى الكثير من الأدباء الناشئين ذوى الطموح . وكان الأولمب محتلا عندئذ بطلائع النهضة الأدبية الحديثة مثل شوقى وحافظ والمنفلوطى ، بل واشتعلت روح المنافسة العنيفة بين أبناء الجيل ذاته ، فتحزب المازنى والعقاد ضد شكرى ، وقاومهم شكرى مقاومة عنيفة فترة من الزمن ثم ألقى سلاحه ولزم الصمت وهجر الأدب ، بعد أن هاجمه المازنى هجوما عنيفا جمع بعضه فى كتاب النقد المسمى « بالديوان » حيث سماه صنم الألاعيب ، ولم يترك نقيصة أدبية بل وأخلاقية إلا نسبها إليه . والذى يبدو لنا عن سبب هذه الخصومة العنيفة هو أن شكرى بحكم إطلاعه الواسع على الأدب الغربى وبخاصة الانجليزى ، قد فرض رقابة دقيقة على المازنى ، فأخذ يتتبع شعره ليدل على ما سماه سرقات المازنى . الذى ربما كان يظن أن الآداب

الغربية مجهولة أو شبه مجهولة في جيله الأول، وأن أحداً لن يروح ينقب وراء اقتباساته الأدبية، أو محصول ذاكرته الغامض المختلط، أو توارد خواطره واتفاق حالاته النفسية مع غيره من شعراء الغرب، وبخاصة شعراء الإنجليزية الذين كان يدمن قراءتهم. وإذا بشكرى يتتبع كل هذا بيتا بيتا ويشير إليه، مما اضطر المازنى إلى التسليم ببعض هذه المطابقات، وأخذ نفسه بالحيطة والحذر، كما يتضح فى مقدمة الجزء الثانى من ديوان شعره، وكما يتضح من مقارنة الجزء الأول والجزء الثانى، حيث نراه ينص فى الأخير على ما ترجمه أو استوحاه من شعراء الغرب.

وأما عن الجيل السابق فقد رفع كل من المازنى والعقاد معوله على كتفه وأخذا ينهالان عليه تحطيما. والذى لا شك فيه أن الجيل الناشىء كان أوسع ثقافة، وأكثر اطلاعاً ودرسا للآداب الغربية وبخاصة الإنجليزية، ولكنه لسوء الحظ كان أضعف موهبة شعرية؛ ولذلك جاءت آراء هذا الجيل الناشىء فى الشعر أقوى من شعرهم نفسه. كما أن حملة النقد القوى العنيف التى قاموا بها قد مهدت السبيل إلى فهم وظيفة الشعر والأدب فهما أسمى من الفهم القديم. فقد حاربوا تسخير الشعر للمدح والتملق والنفاق، ودعوا فيه إلى الصدق والإخلاص فى التعبير عن أحاسيس الشاعر وآرائه فى نفسه وفى الحياة وفى المجتمع الذى يراه فى نفسه.

والواقع أن المازنى الذى انتهى إلى فلسفته الهادئة الساخرة الرقيقة قد كان فى صدر شبابه عنيف الخصومة صارم اللدد . ولقد كتب هو نفسه مقالات فى صندوق الدنيا وغيره ، يروى فيها ذكريات شبابه ويقرر أنه كان فى طفولته عفريتا من الجن . وأنه فى معارك تلك الطفولة كان يعوض ضعف جسمه وضآلته بجرأته البالغة وعدم مبالاته فى أى مكان يصيب من ينازله ، ولا يخشى للقتال مغبة . وهذه الروح نستطيع أن نلمسها فى نقده العنيف لحافظ ابراهيم الذى تناول شعره فى سلسلة مقالات نشرها فى مجلة « عكاظ » ، ثم جمعها فى كتيب صغير باسم شعر « حافظ ابراهيم » . ثم استنكر هذا العنف بل هذا النقد كله فى أخريات حياته وود لو طواه النسيان . وإن كنا لم نعثر له على مثل هذا الندم بالنسبة لعبـــد الرحمن شكرى الذى سماه صنم الألاعيب ، وإن يكن قد أسقط من ديوانه الشعرى بعض أبيات من قصيدة هجاء عنيف لشكرى « كان الغضب والسخط قد أملياها » ومع ذلك ظلت القصيدة بالغة العنف ، وهى التى مطلعها :

بعض بغضائكم أولى البغضاء   إنمـــا الشتم شيمة السفهاء
ليس يشفى السباب غل حسود   قد طوى صدره على الشحناء

. . . .

أنت كالذئب خدن غدر ولؤم   ليس للذئب فى الورى من وفاء

. . . .

أعجمى اللســـان فدم عيي يدعى أنه من الفصحاء

. . . .

يا قطيع اللســان ما لك والشــعر وصوغ الكلام جم العناء
أنت فى الأرض نقمـة الله للنا س جميعا قريبهم والنـــائى

. . . .

أنت فى الزهو والسفاهة واللؤ م عديم المثال دون مراء

وإذا ذكرنا أن هذا الفن وهو فن الهجاء قد اختفى من الأدب العربى الحديث ولم نعد نطالعه فى دواوين الشعراء، أدركنا إلى أى حد بلغ عنف الخصومة فى نفس المازنى. فلم يتردد فى نشر هـذا الهجاء بديوان شعره، ولم يتحرج من أن يضع عنواناً لهذه القصيدة ينم عن المقصود بها وهو « إلى صـديق قديم » ثم يصدر هذه القصيدة بالأسطر الآتية:

« كان لنا صديق أخلصنا له الولاء وصدقناه الإخاء فما زال يوهن من حبلنا ويفصم من عرى ودنا حتى انفرجت الحال ووقعت النبوة وجرى بيننا كلام فبعثنا له بهذه القصيدة ».

هذا المازنى الشاب البالغ العنف المفرط الحساسية هو الذى أصبح فيما بعد المازنى الهادىء الوديع، الساخر المستخف بالحياة وما فيها من آمال وآلام، المتسامح فيما له من حق وإن ظل يتمسك بما عليه من واجب، فلا تهتك ولا انحلال، ولكن لا خصومة ولا عنف،

ولا تعصب حزبي في الأدب أو السياسة أو الحياة الخاصة، وإن يكن المازني الأول لم يفن تماما كما زعم، بل ظل كامنا يطالعنا بنبراته بين الحين والحين كما يلون السخرية بروح الشعر أو يلهبها بنار العاطفة. وبذلك اجتمعت له الصفتان اللتان يرى فيهما الكاتب الفرنسي الكبير جورج ديهامل أهم خصائص الموهبة الأدبية، وهما الدعابة الساخرة والروح الشعرية، وبهما أنقذ أدبه الذي يكاد يدور كله حول شخصه ومشاكل حياته. فأدبه أدب شخصي لا موضوعي، ومشاكل عصره أو مجتمعه التي يعرض لها، لا ينظر إليها في ذاتها وإنما يراها من خلال نفسه، ويلونها بلون الوقع الذي أحدثته فيها.

هذه هي فلسفة المازني في الحياة. حاولنا أن نردها إلى ظروف حياته وعصره، موضحين التطور الواسع الذي مرت به نظرته إلى الحياة وانتصاره على نفسه وتغلبه على آلامه ومحنه ومشقات حياته بفضل تلك الفلسفة، وإن ظلت طبيعته العضوية، وخصائص نفسه المفطورة تغالب تلك الفلسفة وتغلبها بين الحين والآخر، فنلمح المازني العاطفي الحساس الثائر المتمرد والمتشائم الساخط.

وفي الحق أن تحديد روح الكاتب وخصائص نفسه وأسلوبه في الحياة إنما هو تحديد لمكانة الكاتب ولقيمة فنه لأن العبرة بالروح وبالأسلوب وبالفلسفة الحيوية التي يصدر عنها الكاتب. وأما ما دون ذلك فيدخل في صور الأدب وقوالبه وأصوله الفنية، وكلها أمور

لا يمكن أن تجعل من الإنسان كاتباً موهوباً مؤثراً فى الإنسانية ، لأن الروح هى التى تؤثر ، وهى التى تخاطب الأرواح .

بهذه الروح ، وتلك الفلسفة ، قرض المازنى الشعر كما تناول غيره بالنقد ، ثم كتب المقال والقصة والأقصوصة . فهو شاعر وناقدوكاتب مقال وقصاص ، ولكن شعره ونقده صدرا عن طبيعته الأولى ، وقبل أن تستوى له فلسفته الساخرة الهادئة المستخفة ، بينما يصدر بقية إنتاجه عن تطبعه الأخير الذى أوشك أن يصبح طبعاً ، بل وأوشك أن يصبح فى آخر حياته تصنعاً فى بعض الأحيان ، حيث تخطىء السخرية مجالها وتبدو الفكاهة مجتلبة غيرمواتية . وهذا عيب يتعرض له الكثير من الكتاب عندما يتمذهبون ، على نحو ما نجد عند بعض الكتاب العالميين أنفسهم ، كما نجد عند كبار كتابنا المعاصرين ، ولعل أناتول فرانس من الأمثلة الواضحة لهذه الحقيقة ؛ إذ نرى مذهبه فى الشك وعدم الجزم والنفور من البت فى المسائل بآراء قطعية ، ينتهى به إلى نوع من الفوضى العقلية ، التى لا تبت فى شىء ولا تلتزم بشىء ، وكأنها تهرب من كل مسئولية ، بل وتهرب من الحياة . مما دعا إلى ظهور مذهب جديد فى الأدب وفى الحياة ، ينادون به اليوم فى فرنسا ، وهو مبدأ الالتزامية فى الأدب ، أى ضرورة تحمل الكتاب لمسئولية الرأى والجزم فيه بوجهة نظرهم . فلا يكتفون مثلا بأن يصفوا بؤس البائس أو شقائه ، بل يجب أن يحكموا ككتاب ذوى رسالة

ومسئولية فى هذا البؤس والشقاء، فيستنكروه أو يبرروه، ويتحملوا مسئولية رأيهم، ويلتزمون بها أمام قرائهم. ولعلنا نستطيع أن نجد أمثلة لتلك المذاهب أو الاتجاهات التى تستفحل أحياناً فيصيبها الوهن، وتجانب صدق الحياة واتزانها عند كاتبين مصريين معاصرين كالعقاد وطه حسين، حيث استفحل منهج العقاد العقلى وجدله الفلسفى، فجنح فى أحيان كثيرة إلى المغالطة العقلية، أو اقتسار الجدل وتسخيره ضد الحقائق التى تكاد تكون بديهية. وحيث نجد موسيقى الألفاظ وسهولة التعبير وانطلاقه تجنح عند طه حسين نحو فيضان الألفاظ المسرف، وذوبان ذرات المعانى أو الأحاسيس فى ذلك الطوفان اللفظى. وبالمثل استفحلت السخرية والاستخفاف، بل والشك وعدم الجزم عند المازنى حتى أوشكت أن تصبح أحياناً اصطناعاً أو فوضى عقلية.

والآن، وقد تتبعنا روح المازنى منذ ثورة شبابه حتى فلسفة رجولته، واستفحال تلك الفلسفة فى أخريات حياته وصيرورتها مذهباً يكاد يضعف من قيمتها الإنسانية، ويخرج بها عن جادة الصدق وخدمة الحياة، وانتصار الإنسانية على محن تلك الحياة وآلامها، وتلقيها بروح راضية مطمئنة، بل باسمة مستخفة — نستطيع أن ننتقل إلى الحديث عن الصور الأدبية لفن المازنى كشاعر وناقد وكاتب مقال وقصاص، وذلك ما سوف نجمل عنه الحديث فى المحاضرات القادمة.

المـازنى .. شاعراً .. وناقدا

وصف المازنى فى حصاد الهشيم شخصية ابن الرومى بقوله: «عاش ابن الرومى ما عاش ساخطاً على الحياة ناقماً على العصر وأبنائه، مضغناً على الزمن وصروفه، طافح النفس بالمرارة والألم، إلى حد لم يعرفه أحد من الشعراء المعاصرين. وشعره الذى قيد فيه كل حالة من حالات نفسه، وأودعه ما استطاع من التفاتات ذهنه، حافل بالشواهد على ذلك. وعذره فى هذا التمرد عذر كل حساس مصقول النفس مثقف العقل، تصدم عنده الآراء والعقائد بمظاهر الحياة وواقع الحال. وليس أقسى من أثر ذلك فى النفس ولا أوجع. ولسنا نحتاج أن نرجع إلى عصره بصفة خاصة، فإن الحياة كانت قديماً وما زالت إلى الساعة، وستظل إلى آخر الزمن — إن كان له آخر — صراعاً دائماً وجهاداً متواصلا. وما نظن الحياة الإنسانية خلت قط من بواعث السخط ودواعى التذمر، وماكان المرء ليهتدى إلى الشعور بنفسه وينطق بقوله «أنا» لو لا ذلك ولو لا إحساسه إلى جانب هذا — أو قبله — بحدود قدرته، وباحتكاكه بما يجاوز هذه الدائرة ويحدد هذا المجال، وقد يعين الجهل أو البلادة أو كلاهما على الرضى وإشعار النفس الراحة الحيوانية، فلا يرى المرء فيما يحيط به ويضيق عليه إلا عدلا مقنعاً وضرورة لا مهرب منها، ولا خير فى التبرم بها. وليس كذلك

المثقف القوى المشاعر ، الذى كأنما يحس الحياة بأعصابه العارية . مثل هذا لا يسع طوقه أن يغمض عينيه وينيم أعصابه ، حتى لا يرى ولا يحس ما فى الدنيا من الظلم والغبن والخلط والفساد والتناقض » .

وهذه الصورة التى رسمها المازنى لابن الرومى ، تكاد تكون صورته الخاصة ، وإن كنا قد أضفنا إليها من ظروف حياته الخاصة ، وظروف عصره ما يزيد هذه الصورة وضوحا ، غير مكتفين بما اقتصر عليه هو فى تصويره لابن الرومى من أن الحياة تحمل فى ذاتها أسباب السخط ودواعى التمرد فى كل عصر وكل بيئة . وذلك بحكم ما يحسه البشر من تصادم دائم بين الرغبة والإمكان ، وبين الأمل والواقع ، مما يحدث ذلك المرض النفسى الذى تسميه الرومانسية بمرض العصر Mal de sièlce وإن قصدوا به مرض كافة العصور . وهو يصيب عادة الشبان فى مستهل الحياة عندما تتفتح نفوسهم إلى أنواع من الطموح المعقول وغير المعقول . ثم يصطدم طموحهم بما يقوم أمامه من صعوبات فى الناس والأشياء . ويكون عليهم أحد أمرين ، لكى ترضى نفوسهم ، وتطمئن بهم الحياة ، فإما أن يغيروا من نفوسهم ، وإما أن يغيروا الحياة بما فيها من صعوبات مستقرة فى الناس والأشياء . ولما كان كلا الأمرين شاقاً عسيرا ، فإن الاصطدام يحتدم ، فيولد فى نفوس الشباب ذلك السخط والتمرد والشكوى والأنين التى تتكون منها تلك الحالة النفسية ، التى تسمى بالرومانسية ، والتى يصدر عنها أدب

يحمل هذا الاسم . وإذا كان المازنى عند حديثه عن ابن الرومى لم يرا مخرجاً من هذا المأزق غير الجهل والبلادة أو كليهما ، فإنه هو نفسه، قد كذب هـذا الزعم . وأثبت أن هناك وسيلة أخرى سامية نبيلة، لتخليص النفس البشرية من هذا العذاب المستحكم . وهذه الوسيلةهى تلك الفلسفة الساخرة المستخفة ، التى تنجى الإنسان من التكالب على الحياة ومن المبالغـــة فى الحرص على أنواع من الطموح الذى قد لا يستحق ما نعلقه به من قيمة ، بل قد يكون استخفافنا به وعدم التكالب عليه هو السبيل الوحيد إلى تحقيقه، على نحو ما فعل المازنى عندما أفلت منه أو تراخى عنه ما ظنـه مجداً يستطيع تحقيقه بقرض الشعر ، فسخر من الشعر والأدب ، بل وسخر من الحياة كلها ، وإذا بهذه السخرية وما أنتجته من أدب ، هى التى تضمن له المجد والخلود على نحو ما ضمنهما من قبل « دون كيشوت » اسرفانتيس ، بعد أن أعياه قرض الشعر والتكالب على المجد الأدبى .

والواقع أن ديوانى الشعر اللذين نشر المازنى أولهما فى سنة ١٩١٣ والثانى فى سنة ١٩١٧ كان :

كل بيت فى قرارته جنـــة خرساء مرنان
خارجاً من قلب صاحبه مثـــلما يزفر بركان

والظاهر أن هذه الحالة النفسية المظلمة الساخطة المتمردة الشاكية قد ظلت تلازمه حتى بعد صدور هذين الديوانين، إذ عثرت السيدة

نعمات أحمد فؤاد بين الأوراق المخطوطة على بضعة قصائد ومقطوعات كان قد جمعها ليصدرها فى جزء ثالث من ديوانه . ومن بين هذه القصائد واحدة وضع لها عنواناً « وصية شاعر » على مثال وصية هاينى الشاعر الألمانى ، وقدم لها بتبرير نثرى ساخر لا يمكن أن يشفع لما فيها من مرارة ، بل وحقد على الحياة والأحياء ، وفيها يقول :

ستر خى على هذى الحياة الستائر وتطفأ أنــوار ويقفر سامر
فهل راق هذا الخلق قصة عيشتى وماذا يبالى من طوته المقــابر
تركت لهم من قبل موتى وصية نظير التى أوصت بها لى المقادر
وهبت لأعدائى إذا كان لى عدا همومى وما منـه أنا الدهر ثائر
وأوصيت للمحبوب بالسهد الضنى وبالدمع لا يرقى ولا هو هامر
وبالجدرى فى وجهــه ليزينه وبالعــرج المرذول والله قادر
وبالضعف والإملاق واليــأس والجوى
وبالسقم حتى تتقيــه النواظر
وبالشيب بالأوجاع فى كل مفصل وبالثكل فى الأبناء والجد عاثر
وكل سقام قد تركت لذى الصبا وما كنت منه فى الحيـاة أحاذر
وللناس ألوان الشقــاء وإننى إذا مت لا آسى على من يخامر

والديوانان لا حديث فيهما إلا عن نفسه وهمومه وآلامه وذكرياته ، ملونة كلها بلون قاتم ، فهو يخاطب الماضى بقوله :

القلب قــبر وأنت ساكنه لا يبرح القــبر ميت سكنه

والدار المهجورة :

لم يدع منهـــا البلى إلا كما   تترك التسعون من غض الشباب

وإن كانت عذوبة الأيام التى قضاها بتلك الدار لم تزل عالقة بذكراه :

كنت للهو فقـــد صرت وما   أنت إلا طيف أيام عـــزاز

وإن كانت تلك الدار لا تزال عزيزة على نفسه ، يود أن يحتفظ لها بقداستها فيصيح قائلا :

أوصدوا الأبواب بالله ولا
تدعوا العين ترى فعـل البلا
وامنعوا دار الهوى أن تبذلا
إن للدار علينـــا ذممـــا
وقبيح خونهـا بعد الخراب

« والإخوان » قد ضيعوا عهده وخانوا وده . فضج وتألم وبالغ فى الألم صائحاً :

سـل الخلصاء ما صنعوا بعهدى   أضاعوه وكم هزلوا بجـــدى
ركبت إليهمو ظهـــر الأمانى   على ثقة فعدت أذم وخـــدى
وصلت بحبلهم حبلى فلمـــا   نأوا عنى قطعت حبـــال ودى
وكانوا حليتى فعطلت منهـــا   وغمدى ، فالحسام بغـــير غمد
أذم العيش بعدهمو ومن لى   بمن يدرى أذموا العيش بعدى

وما راجعت صبرى غير أنى — أكتم لوعتى فى الشوق جهدى
ولو أطلقت شوقى ، بل نحرى — وروى وبل غاديتيه خـدى

. . . .

على إنى وإن أطرب لقرب — ليعجبنى عن المخفار بعـدى
إذا ما ضن بالتسليم قـوم — فإن الجـود بالتوديع ردى
لكل فى احتمال النـاس طبع — ولست على تملقهم بجـلد

.. الخ . . . وكذلك (فتى فى سباق الموت) :

نعد أنفاسـه ونحسبها — والليل فيـه الظلام يلتطم
إذا خروج الحيـاة أجهده — تساقطت عن جبينه الديم
صدر كصدر الخضم مضطرب — جحافل الموت فيه تزدحم
إن قام ملنـا له بمسمعنا — أو نام خفت بوطئنا القدم
يرتاع من طول نومه الأمل — ويشتكيه الرجاء والسأم
كأنما الخـوف من تردده — خيـل لها من رجائنا لجم
خلناه قد مات وهو فى سنة — ونائم الجفن وهـو مخترم
قد قلصت ثغـره منيته — كأنـه للحمـام يبتسم

ومعظم قصائده الأخرى الجيدة مثل « أحلام الموتى » و « ثورة النفس » و « الوردة الذابلة » و « بعد الموت » و « مناجاة شاعر » و « قبر الشعر » و « عتاب » و « ثورة النفس فى سكونها » و « هيهات بابل من نجد » كلها من هذا النوع القاتم الحزين . ولعل قصيدة « ثورة

النفس» خير معبر عن الحالة النفسية التى كانت مسيطرة عليه عندئذ، وقد كتب هـذه القصيدة رداً على قصيدة بنفس العنوان ومن القافية المزدوجة ، قد أرسلها إليه عبد الرحمن شكرى وفيها يقول :

هياج كما هاجت قطاة تعلقت بأحبولة الصياد إذ ليس مهرب
أما فى سكون الليـــل يانفس واعظ
أما فى سكون الروض ملهى ومطـــرب

فأجابه المازنى بقوله :

أخا ثقتى كم ثارت النفس ثورة تكلفنى مالا أطيق من المض
وهل أنا إلا رب صدر إذا غلا شعرت بمثل السهم من شدة النبض
لبست رداء الدهر عشرين حجة وثنتين ، ياشوقى إلى خلع ذا البرد
عزوفا عن الدنيا ومن لم يجد بها مراداً لآمال تعلل بالزهــــد
تراغمنى الأحداث حتى كأننى وجدت على كره من الحدثان
فلاهى تصمى القلب منى إذا رمت ولا ترعوى يوماً عن الشنآن
أبيت كأن القلب كهف مهدم برأس منيف فيه للريح ملعب
أو أنى فى بحر الحوادث صخرة تناطحها الأمواج وهى تقلب

. . . .

أكن غليلى فى فؤادى ولا أرى سبيلا إلا إطفاء حر جوى الصدر
أعالج نفسا أكبر الظن أنها ستذهب أنفاساً حراراً على الدهر
إذا اغتمضت عيناى فالقلب ساهر يظل طويل الليل يرعى ويرصد

وما إن تنام العين لكن إخالها　　تدير بقلبي نظـــره حين أرقد

ومن هذه القصيدة قوله :

سأقضى حياتى ثائر النفس هائجاً　　ومن أين لى عن ذاك معدى ومذهب

على قدر إحساس الرجال شقاؤهم　　وللسعد جـــو بالبلادة مشرب

وبالرغم من أن المازنى قد وصف شعر شبابه هذا بأنه « لا يصور النفس على حقيقتها ولا يعبر عنها تعبيراً صحيحاً لأن الاقتباس فيه بالقديم من شرقى وغربى أكثر من الاستمداد من التجريب » نقول بالرغم من هـــذا الوصف ، فإن شعر المازنى يصور طوراً حقيقياً من أطوار حياته ، وإن كنا لا نـنكر أنه قد تأثر فى هذا الشعر تأثراً كبيراً بالشعراء الإنجليز والعرب ، وبخاصة الشاعر الرومانتيكى شيلى ، والشاعر العاطفى الشريف الرضى ، اللذين اعترف المازنى فى حديث له بمجلة الهلال أنهما كانا الشاعرين اللذين تأثر بهما أبلغ التأثر وهو فى صدر حياته .

وأما عن طبيعة شعره الفنية ، فقد سبق أن قلنا أنه يـكون مع عبدالرحمن شكرى وعباس العقاد مدرسة أوضحوا اتجاهها فى مقدمات دواوينهم وفى مقالاتهم ودراساتهم النقدية ، وقد كتب العقاد مقدمة للجزء الأول من ديوان المازنى بينما كتب المازنى مقدمة الجزء الثانى ، كما أوضحنا عـدداً من الأصول التى يدعوان إليها فى نقدهما لشعر

شوقى وحافظ ، بل وشعر عبد الرحمن شكرى نفسه عندما فسدت بينهم العلاقات ، ونشبت الخصومة .

وبالرغم من حملتهم العاتية على التقليد فى الشعر العربى ، وثورتهم على قيوده القاسية فى الأوزان والقوافى . فإنهم فى الواقع لم يخرجوا بالشعر العربى عن دائرته الغنائية ، ولم يفعلوا مافعله مطران من تحويل الشعر نحو الموضوعية القصصية أو الدراماتيكية ، كما أنهم لم يتحللوا من الأوزان لإدراكهم أن الوزن الموسيقى هو فى النهاية المميز الأساسى للشعر . وأما القافية فقد تحللوا منها على قدر ، إذ قالوا بالاكتفاء بالقافية المزدوجة أى التى تتحد فى كل بيتين فحسب ، لا فى القصيدة كلها ، أو القافية المتجاوبة ، التى تتفق فى البيتين تقع بينهما مقطوعة من قافية أخرى . وأما عن أغراض الشعر وموضوعاته فكل ما حملوا عليه كان شعر المناسبات الذى ينزل بهذا الفن الرفيع إلى مستوى المديح الكاذب المصطنع والتملق المعيب ، وهذا ما لا نعثر له على أثر فى ديوان المازنى . كما نادت هذه المدرسة بالصدق وضرورة احترامه ، حتى يصبح الشعر تعبيراً صادقاً عن نفسية الشاعر ، وعن عصره الذى يراه خلال نفسه . ومثل هذه النظرية كانت خليقة بأن تنتهى عند رجل مفرط الحساسية ، ثائر على الحياة ، مصاب بمرض العصر كالمازنى — إلى الشعر الرومانتيكى الذى نطالعه فى ديوان المازنى .

وأما عن أصول الفن عند هذه المدرسة فنستطيع أن نستنتجها من نقد المازنى والعقاد لحافظ وشوقى . حيث نراهما يطالبان مثلا بوحدة القصيدة العضوية ، بدلا من وحدة البيت واستقلاله . وفى ذلك يتفقان مع مدرسة مطـــران ؛ كما نراهما يهاجمان التفكك والتقليد والإحالة ، وعدم الصدق ، ويضعان مقياساً للجودة إمكان ترجمة الشعر إلى لغة أجنبية دون أن يفقد قيمته ، وكل هذه أصول ومقاييس تقبل الجدل والمناقشة . ومن المعلوم أن النقـد العنيف الذى شنه المـازنى والعقاد على العمالقة الذين كانوا يغمرونهم بظلالهم — لم يخل من هوى وتحامل . والبون شاسع بين نقد هـذين الأديبين الـكبيرين للعمالقة المعاصرين ، وبين نقدهما لشعراء العرب الأقدمين أو شعراء الغرب ، حيث يخلو نقدهما من التحامل والهوى ، ويصبح نقداً موضوعيـا تفسيرياً يبحث عن الخصائص والمميزات ، ويحاول تفسيرها ، وإذا حكم جاء الحكم إما سليما وإما مخطئا بحسن نية وسلامة قصد ، على نحو ما نجد فى دراستهما لابن الرومى بنوع خاص ثم فى دراسـة المازنى لبشار بن برد فى كتاب قائم بذاته .

ولقد كتب المازنى فى عدد نوفمبر سنة ١٩٤٥ من مجلة الكتاب مقالا يقول فيه عن النقد « لا يخلو كتاب ما من نقص ، ولو خلا — وتلك مرتبة لا تنال — لما كان إنسانيا ، ولكان خليقاً بقارئه أن يحس أن صاحبه ليس من بنى الإنسان ، وأن ينظر إليه نظرة فيها

رهبة ، وأن يستوحش من جانبه . بل أنا أذهب إلى أن من البواعث الخفية على الإعجاب أن يفطن القارىء إلى مواضع النقص ومواطن الضعف ، وأن يحس ولو إحساساً غامضا أن الكتاب من الكتب على جلال قدره ، وعظم شأنه ، وندرة مثله ، وعجز الأكثرين عن الإتيان بما يقاربه لا يخلو من زلات وعثرات ووهن ، وسقوط هناك ، أو إسفاف أو خمولة ، أو قصور أو تقصير ، أو غير ذلك مما يجرى هذا المجرى ويلحق به . وهـــذا الشعور ، لك أن تقول هذه الثقة من القارىء بأن الكتاب لا يبرأ من العيوب والمآخذ — حتى ولو كان يعييه أن يبينها ويضع إصبعه عليها — يحفظ له احترامه لذاته ، أو يستبق له القدر اللازم لحياته من الغرور ، ويشعره أن الكاتب مهما سما قريب منه وإنسان مثله ، فيهون عليه أن يوليه الإكبار الذى يستحقه دون أن يشعر بغضاضة من ذلك على نفسه . ومن هنا كان شر الكتب الإنسانية أو أشدها استفزازاً للنفس واستثارة لسخطها ، ذلك الذى يشعر القارىء بهوانه ، ويبرز له مبلغ ضعته وضآلته . وليست ثورة القارىء على الكتاب الذى يكون من هذا القبيل ، إلا مظهراً من مظاهر الدفاع عن النفس » .

ولسنا ندرى إلى أى حد تعبر هذه الآراء عن طبيعة المازنى الحقيقية ، أو يصدر فيها عن بعض النظريات النفسية والفلسفية ، التى يمكن أن يكون قد قرأها . فأقواله هـذه تذكرنا بفقرات قرأناها

منذ سنين فى خطبة ألقاها السياسى الكبير پركليس ، تأبيناً لجند أثينا الذين استشهدوا فى سبيلها فى الحرب التى قامت بينها وبين اسپرطة فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وفيها يقول : « إن الإنسان لا يستسيغ من مدح للغير إلا بقدر ما يعتقد أنه قادر على مثله » كما أن من علماء الأخلاق المتشائمين من يردون كثيراً من أعمال الخير والبطولة والكرم إلى الأنانية البشرية الدفينة التى تجد فى مثل هذه الأعمال الخيرة ما يرضى غرورها واستعلاءها وكبرياءها المسرف . وإنه وإن تكن عبارات المازنى السابقة لا تخلو من لبس وغموض ، عندما يتحدث عن الكتب التى تشعر القارىء بهوانه وضعته وضآلته — إلا ان السياق العام يوحى لسوء الحظ بأنه لا يقصد الهوان والضعة والضآلة البشرية فى ذاتها ، بل يقصد الهوان والضعة والضآلة التى قد يستشعرها الأديب عندما ينقد كتاباً أو قصيدة أو قصة لأديب آخر يتفوق عليه بملكاته ، فيجد سروراً خفياً فى أن يتلمس مواضع النقص والقصور والتقصير والخولة والإسفاف والزلات والعثرات التى يتحدث عنها المازنى ، ويكون تلمس تلك النقائص عندئذ مظهراً من مظاهر الدفاع عن النفس . ولو صح هذا لكان فيه ما يحزن ، وإننا لنخشى أن يكون قد صح عند المازنى ، على الأقل فى صدر حياته وقبل أن تستوى له فلسفته التى كبحت جماح نفسه ، بل ومكنته فى أغلب الأحيان من أن يقهر تلك النفس الأمارة بالسوء . فالكتاب الجيـــد ليس عدوا لقارئه ،

بل هو خير صديق ، وهو لا يمكن أن يجرح كبرياءه ، بل هو بلسم يضمد جراح النفس ، ويرفع القلب إلى المثل الأعلى ، وإلا كانت النفس مريضة وكان القلب سقيما .

وعلى أية حال فإن نقد المازنى الشاب للعمالقة من معاصريه كحافظ إبراهيم والمنفلوطى بل وعبد الرحمن شكرى ، لا يخلو من تحامل شديد قد يدخل فى نطاق الدفاع عن النفس ، الذى يتحدث عنه المازنى ، ونظن أن العقاد قد شاركه الإحساس به ، فجاء نقده هو الآخر بالنسبة للمعاصرين شبيهاً بنقد المازنى متضامنا معه .

والواقع أن المازنى ورفاقه قد استشعروا الكثير من الضيق من الظلال التى كان يلقيها عليهم عمالقة العصر ، وكأنهم يحجبون عنهم ضوء الشمس ووهج المجد . حتى ليخيل إلينا أن صمت شكرى وهجر المازنى للشعر يرجعان إلى حدما إلى احتلال شوقى وحافظ بنوع خاص قمة الأولمب ، وظنهما أن تلك القمة لا سبيل إليها ، وإن تكن هناك فيما يبدو أسباب أخرى متعددة ، حملت المازنى على هجران الشعر وإيثار النثر . منها بل وفى مقدمتها تغير نظرته إلى الحياة وتكون فلسفته الخاصة ، التى يواتيها النثر أكثر مما يواتيها الشعر ، الذى سيظل لغة النفس الحارة وانفعالاتها المتقدة . ومنها اضطراره إلى تغيير مهنته من التدريس إلى الصحافة . فالتدريس كان يكفل له الحياة المادية ويترك له الفراغ اللازم لتحقيق هوايته فى نظم الشعر ومعالجة فن القول .

فلما أصبحت الصحافة التى لا ترحم هى وسيلة حياته ، لم ير بدا من أن يتحرر من قيود الشعر ومشقاته ، لـكى ينطلق فى مجال النثر المطلق السريع الذى يستطيع بواسطته أداء حق الصحافة . وأن يضمن لنفسه ولذويه لقمة العيش ، المعجونة بعرق الجبين .

المازنى والمقالة

وعلى أية حال يمكن القول بأن المازنى قد هجر الشعر إلى المقالة النثرية وإلى الصحافة منذ أن اندلعت الثورة الوطنية الكبرى فى سنة ١٩١٩ عندما أخذ يكتب فى جريدتى (الأفكار) و (الأخبار) مقالات وطنية متأججة بإمضاء (مطلع) ساهم بواسطتها فى بث الوعى الوطنى القوى مع المرحوم أمين الرافعى الكاتب الوطنى الكبير مساهمة فعالة ، حتى إذا تصدعت جبهة الثورة وانشقت إلى أحزاب ، فترت حماسته للسياسة بعض الشيء . وإذا كانت أرستقراطيته العقلية قد مالت به نحو أحزاب الأقلية غير الشعبية ، فإن تجاربه مع رجال السياسة ورجال الأحزاب لم تلبث أن زادته فتوراً ، حتى استقر على رأى فى الأحزاب أجمله فى كتابه (من النافذة) ص ٨٥ ، ٨٦ حيث يقول : « ما هذه الأحزاب السياسية التى نراها ؟ أليست صورة أخرى للأشراف الذين عفى على عهدهم الزمن ، والذين كانوا لا ينفكون يقتتلون على السلطان والمجد ؟ ! والأحزاب تطلب الحكم ، وتزعم أنها إنما تبغيه لتخدم بلادها ، وإنها لصادقة . ولكنها كاذبة أيضاً . هى صادقة لأن غرور الإنسان يجعله يتصور أنه أخطر ممن عداه ، ولأنه لا داعى لأن يفرض المرء أن هذا الحزب أو ذاك إنما ينشد الحكم ويسعى

لولاية الأمر ليسىء عمدا ، فما يفعل ذلك إلا عدو أو خصم للجماعة كلها ، أو مضغن على العالم يريد — كما يقول المتنبي — أن يروى رمحه غير راحم ، ولكنها كاذبة حين تزعم أن غايتها الخير للجماعة وحدها ، وأنها لا تبغى لنفسها جاهاً أو سلطانا ، ولا يعنيها أن تنعم بمزايا الحكم. على أن إرادة الحكم لما يفيده من المزايا ، لا تنفى الإخلاص فى إرادة الخير للجماعة ، والصدق فى دعوى التنزه عن المآرب الشخصية . ووجه الصدق والإخلاص هنا أن الإنسان يظل يلهج بخير الجماعة حتى يوحى ذلك إلى نفسه ، فيصبح وهو يعتقد أنه لا يبغى إلا هذا الخير العام ، وأنه لو جاءه هو خير عن طريق الحكم لزهد فيه وأعرض عنه. فالذى يحسه من نفسه ويعرفه من غاياته هو هـــذا الخير للجماعة ، والمستور عنه بفعل الإيحاء الملح هو المجد الشخصى والمطامع الذاتية ، ويمضى فى الحديث عن الحزبية والأحزاب فى نفس الموضع من الكتاب إلى أن يقول : « وكل حزب فى الدنيا عبارة عن أحزاب شتى وكل من فيه ينشد البروز والارتقاء إلى القمة ، والحرب دائرة أبداً بلا فتور ، والسلاح لا يلقى فى الليل أو النهار ، فهذا يؤخر نفسه ويقدم غيره ، ويتخذ من مظهر إنكار الذات وسيلة للكيد لمنافس له ، وما يقدم غيره على نفسه إلا ليكون آلة فى يده ، وتراه لا يكف عن الثناء عليه والشهادة له ليجعله ألين فى يده لفرط مايسره كل ساعة ، ويلازمه ولا يفارقه ولا يدعـــه يغيب عن عينيه لحظة ،

ليأسره بمظهر الإخلاص ، وليصبح وجوده إلى جانبه عادة له وليمنع من أن يتمكن من أذنه غيره . ويرى غيره هذا فيسخطون ويتبرمون ويتجه سعيهم إلى التفرقة — وقد يتعمدون أن يكتموا النصيحة والرأى السديد ليبدو خطل الرجل وصاحبه . وتسأل عن الخير العام للجماعة فلا تراه . وإنما ترى منافسات وأحقاداً ودسائس وسعايات لا آخر لها ، وتسأل عن إرادة الخير ماذا صنع الله بها فلا تكاد تتبينها » .

وهذا الرأى الصحيح فى جملته هو الذى صرف المازنى عن أن يتعصب لحزب من الأحزاب . ولعلنا نستطيع أن نضيف إليه ما سمعناه منه شخصياً من سوء ظن بالأحزاب ورجالها واستغلالهم لرجال الفكر والقلم لتحقيق مطامعهم ، وجذب الشعب إليهم ، ثم تنكرهم بعد ذلك لكل صاحب رأى ، بعد استغلال مجهوده بالطرق السياسية الملتوية غير الشريفة ، التى ينفر منها رجال الفكر ، بل ويعجزون عن حذقها ، فضلا عن اصطناعها .

وإذا كان المازنى قد عاد فى آخر حياته إلى مناصرة النقراشى وحزبه بكتابة المقالات السياسية فى جريدة الأساس ، فقد كان ذلك لزمالة وصداقة قديمة بالنقراشى ، الذى تخرج معه فى نفس العام من مدرسة المعلمين العليا ، كما كان لإيمانه الخاص بنزاهة النقراشى وسلامة قصده ، وهما صفتان كان يرى فيهما ما يشفع لضيق الأفق أو عدم اتساع الحيلة .

وعلى أية حال فقد أراد الله بالمازنى وبالأدب العربى الحديث خيراً ، عندما صرفه عن الحزبية والأحزاب رغم اشتغاله بالصحافة واحتلاله مكاناًفىالصدارة بين كتابها ، كما أراد بهما خيراً عندما صرفه عن الشعر وهداه إلى فلسفته الرائعة التى صدر عنها فى نثره ، إذ كتب مجموعات من المقالات تعتبر من خير ما كتب فى الأدب العربى الحديث.وهى مجموعات «حصاد الهشيم» ، و «قبض الريح» ، و «صندوق الدنيا » ، و « خيوط العنكبوت» ، و « من النافذة » ، و « ع الماشى » . وهى مقالات تجمع بين الأبحاث والدراسات الاجتماعية والنقدية ، وبين المقالات الفكاهية والقصصية والوصفية والتصويرية . وجانب كبير منها إن لم يكن معظمها يدور حول حياته الخاصة وذكريات طفولته وشبابه ، والحياة فى بيئته المصرية فى البيت والمدرسة والشارع والتدريس والصحافةوالمجتمع . وفيها مادة إنسانية غزيرة وروح ساخرة أو شاعرة رقيقة نافذة .

والملاحظ أن فن المقالة قد تطور تطوراً ملحوظاً عند المازنى ، الذى كان يحفل فى أول حياته بالمطالعة والدرس وتجويد الأسلوب ، ثم أخذ يغترف بعد ذلك من حياته الحاضرة والماضية ومن حياة مجتمعة ويسترسل فى أسلوبه فلا يجرى وراء تجويد ولا يغوص خلف لفظ أو تعبير ، وإنما ينطلق على سجيته ، ولا ينفر من اللغة الدارجة عند مايحس أنها أكثر مواتاة وأصدق تعبيراً ، لأنه هو نفسه يعترف

بأن الصحافة إذا كانت قد جنحت به نحو السرعة والسطحية ، فإنها قد نأت به عن اللفظية والأكاديمية ، وقربت بينه وبين الحياة التى تعتبر الصحافة من أهم مراصدها . وإذا كان من الحق أن الصحافة قد جنت على أدبه بطول الزمن ، وطغت عليـــه بعض الشىء بعيوبها المعروفة ، فإن من الحق أيضاً أن الصحافة لا تحمل الوزر كله ، إنما يشاركها فيه كبار كتابها عندما يطمئنون إلى ذيوع صيتهم واستحواذهم على ثقة الجماهير وإعجابها ، وإقبال الصحف عليهم لترويج صحفهم ، فتقل قسوتهم على أنفسهم ، ويضعف احتفالهم بما يكتبون وتشددهم فى التجويد والعمق والابتكار ، مما يصح معه قول ديهامل « إن النجاح « قبر مذهب » .

المـازنى القصاص

تحدث المازنى نفسه على لسان إبراهيم الثانى بطل القصة التى تحمل هذا الاسم عن القصص فقال . « إن الروايات ليست ولا يمكن أن تكون خيالا بحتاً أو شيئاً يخلقه الإنسان من لا شىء ، ولا يحور فيه إلى أصل من حقائق الحياة » ، وأنكر قدرة الإنسان على هذا الخلق من لا شىء ، وذهب إلى أن كل ما يسعه هو التوليد وهو أن يلفق القصة من جملة ما شهد ، وما جرب وما سمع ، ويكون الشخصيات من أشتات ما عرف ، ثم تعمل الفطنة الطبيعية واللب العبقرى فعلهما بعد ذلك ، فليست القصص خيالا ولا ما تصفه محالا

وهذا الحديث الذى رواه المازنى عن بطله إبراهيم الثانى ، هو فى الواقع حديث المازنى الخاص عن فنه القصصى . فهو لم يكتب قصصاً من العدم ، ولا من نسج الخيال ، بل استق مادة قصصه مما رأى أو جرب أو سمع . بل إن بطل قصتيه الأساسيتين وهما «إبراهيم الكاتب» و« إبراهيم الثانى» هو المازنى نفسه ، بل لعلنا لا نعدوا الحق إن قلنا أنه هو نفسه بطل معظم ما كتبه من قصص وأقاصيص ، كما كان محور الكثير مما كتبه من مقالات تدور حول ذكريات حياته أو مشقات عمـــله الصحفى أو تجاربه فى الحياة ، وشتى علاقاته الاجتماعية ، بحيث يمكن

القول بأن أدب المازنى كله شعراً ونثراً وقصصاً ومقالات أدب شخصى ، ومع ذلك استطاع المازنى بماوهبه الله من روح شاعرية شفافة ، وبما أفاده من الحياة من فلسفة فكهة ساخرة أن يعطى هذا الأدب طابعاً إنسانياً جديراً بالخلود .

لقد كتب المازنى من القصص « إبراهيم الكاتب » و « إبراهيم الثانى » و « عود على بدء » و « ثلاثة رجال وامرأة » و « ميدو وشركاه » كما كتب عدداً كبيراً من الأقاصيص أو المقالات القصصية فى مختلف الصحف والمجلات ، وجمع منها مجموعات فى « ع الماشى » و « فى الطريق » و « من النافذة » فضلا عما انتثر منها وسط مجموعات مقالاته الأخرى مثل « حصاد الهشيم » و « وقبض الريح » ، « وصندوق الدنيا » ، « وخيوط العنكبوت » ، كما أن له أقصوصة بعنوان « على الهامش » نشرها ضمن مجموعة من الأقاصيص لعدد من الأدباء المصريين نشرت باسم « أقاصيص » .

والملاحظ بوجه عام على قصص المازنى وأقاصيصه أنها لا تعنى بالأحداث ولا تغرب فى الخيال ، وقد قرر هو نفسه أنه لا يعنى فى قصصه بسرد الأحداث وإنما همه الأول هو تحليل النفوس وتصوير الشخصيات ، حتى أن الكثير من أقاصيصه لا يعتبر قصصاً فنيا ، بل مقالات قصصية لا حبكة فيها ولا بناء للقصة ، بل سرداً لحوادث أو ذكريات أو تجارب بالغة البساطة ومن حولها فيض من التحليلات

النفسية أو التأملات العقلية ، وكأن القصة عنده مجرد مسمار يشجب فيه لوحاته الفكرية أو الجمالية ، ولذلك لا نراه يعنى فى الكثير من قصصه وأقاصيصه ، بخواتمها ، حتى قال بعض النقاد أنه كاتب هروب من الحياة ، وهم يستدلون على ذلك بأهم قصة كتبها وهى «إبراهيم الكاتب» حيث نتابع بطلها إبراهيم فى سلسلة مغامرات مع مارى وشوشو وليلى. وإذا كنا قد عرفنا مصير بعض تلك الشخصيات كشوشو التى تزوجت بالدكتور محمود فإننا لم نعرف شيئاً عن مصير الشخصيات الأخرى وبخاصة بطل القصة الذى لم نعلم عنه إلا أنه لم يتزوج بواحدة من هؤلاء الفتيات ، دون أن نتبين آثار تلك الخيبة فى نفسه ولا تأثيرها على حياته . وإن كنا نعود فنلتقى نفس البطل فى قصته الثانية إبراهيم الثانى حيث نشهد زواجه من تحية ثم مغامراته البريئة مع عايدة وميمى. وقد تطور البطل تطوراً كبيراً بفضل السن وتراكم تجارب الحياة وخمود فورة الشباب ، واتساع العقل والقدرة على فهم الغير والتفكير فى مصيرهم ، وهو تطور أفقد هذا البطل الذى يختلط بالكاتب اختلاطاً تاماً بحكم وحدة الشخصية ، الكثير من حرارة السخرية التى أفسحت المجال لنظرات الفكر الهادئة إن لم تكن الباردة ، ولتحليلات العقل ومناجاة النفس التى تصل إلى حد تجريدها وإجلاسها أمام البطل على مقعد واضعة ساقاً على ساق !

وفى الحق أن القصتين الأساسيتين اللتين كتبهما المازنى وهما :

« إبراهيم الكاتب » ، « وإبراهيم الثانى » لا يعتبران قصتين بقدر ما يعتبران ترجمة شخصية المازنى أو لبعض تجارب حياته ، وإن يكن قد حاول أن يدخل فيهما بعض العناصر الخيالية ، أو يعمى فى بعض وقائعهما ، ليخرجهما مخرج القصص ، أو نزولا على بعض مقتضيات الحياة . وكل من هاتين القصتين تمثل مرحلة واضحة فى حياة الكاتب الفنية والعقلية ، كما تمثل طوراً من أطوار فلسفته فى الحياة ، تلك الفلسفة التى وإن نكن قد قسمناها فيما سبق إلى قسمين : قسم التذمر والسخط والشكوى والتشاؤم — وفى هذا القسم يدخل شعره — ثم قسم السخرية والتهكم والاستخفاف بالحياة وهو القسم الذى يتناول معظم أدبه النثرى — نقول أننا وإن نكن قد اكتفينا فيما سبق بهذا التقسيم العام ، إلا أن النظر الدقيق يمكننا من أن نلاحظ تطوراً واضحاً فى القسم الثانى من حياته وفلسفته وإنتاجه . ففى أول هذا الطور كانت روح الشعر لا تزال طاغية على نفسه ، حتى لتطالعنا من خلال نثره بعد أن هجر القريض . وهذه الروح واضحة فى الكثير من صفحات إبراهيم الكاتب حيث يصف مظاهر الطبيعة أو يتحدث عن خوالج النفس بروح شعرية نافذة . وكذلك الأمر فى السخرية ، فقد كانت فى أول هذا الطور سخرية مرة يلونها الأسى ، أو تومض من خلالها جمرات النفس الثائرة . أما فى آخر هذا الطور وعندما كتب إبراهيم الثانى فقد ضعفت الروح الشعرية بضعف الانفعال العاطفى ، كما أصبحت

السخرية مجرد فكاهة ، بل قد يصطنعها الكاتب أحياناً دون أن يحفزه دافع إنسانى ، ودون أن تترجم عن حقائق نفسية دفينة . وذلك بينما نرى التفكير العقلى قد استفحل حتى أوشك أن يقترب من « الفنقلة » الأزهرية ، أو « الفرضية » المسيحية casuistique ، وهى ذلك المنهج العقلى الذى يقلب كل مسألة على كافة وجوهها ويلتمس حلا لكل فرض حتى ولو كان هذا الفرض مستحيلا أو بعيد الاحتمال .

وبالرغم من أن قصص المازنى قد لا تعتبر مستوفية لكافة الشرائط الفنية للقصة ، إلا أنها مع ذلك تعتبر كنزاً ثميناً من القيم الإنسانية والقيم الجمالية التى أضفاها عليها تفكيره النافذ وروحه الشعرية المجنحة ؛ وفلسفته الساخرة المؤثرة ، كما تعتبر كنزاً فى تحليل النفوس وتصوير الشخصيات ، وفى طليعتها شخصية إبراهيم عبد القادر المازنى نفسه الذى يعتبر فى طليعة كتابنا المحدثين ، بل لعله يتميز عنهم جميعاً بما له من فلسفة خاصة فى الحياة ، ومن أسلوب متميز .

الفهرس